الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٢٥ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 125.

Lundi-25-11-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ١٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

صفحة
١٨٨١ عطف جميل ... ... : أحمد حسن الزيات ... ...
١٨٨٣ المجنون ... ... : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى
١٨٨٧ الصراع بين الطغيان والديموقراطية ... ... : بقلم مؤرخ كبير ....
١٨٨٩ الفلسـفة ... ... : الدكتور ابراهيم بيومى مدكور
١٨٩١ قصـة المـكروب ... : الدكتور أحمد زكى ... ...
١٨٩٥ بقية المذهب الطبيعى ... مذهب الذرائع ... ... : الأستاذ زكى نجيب محمود ...
١٨٩٧ قصة الفتح بن خاقان ... : الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى
١٩٠٠ المشـكلة ... ... : الأديب أحمد الطاهر ... ...
١٩٠٣ عمرو بن العاص ... ... : حسين مؤنس ... ...
١٩٠٥ الـكائنات الغيبية ... : خيرى حماد ... ...
١٩٠٨ أبو العتاهية ... ... : الأستاذ عبد المتعال الصعيدى
١٩١٠ الرأى (قصيدة) : الأستـاذ أحمد الزين ... ...
١٩١١ الجبـل « : الأستاذ عبد الرحمن شكرى
١٩١١ عذراء الهوى « : سليم الزركلى ... ...
١٩١٢ الزواج « : عبد الهادى الطويل ... ...
١٩١٢ الوداع « : الياس قنصل ... ...
١٩١٣ حروب طروادة (قصة) : الأستاذ درينى خشبة ... ...
١٩١٦ اللغة البسوية بربرية ... : محمد السعيد الزاهرى ... ...
١٩١٦ قصة رائعة وفلم مبتذل ... ...
١٩١٧ وفاة لاوردس برون . الأستاذ الزنجانى ... ...
١٩١٧ أسبوع المتنبي فى دمشق . وفاة فنان كبير ، وانتحار كاتب شهير
١٩١٨ شهادة لله ... ... : الأستاذ ابراهيم ابراهيم على
١٩١٩ خيوط العنكبوت (كتاب) : الأستاذ محمد سعيد العريان ...

على هامش الموضوع أيضاً

عطف جميل ...

وجّه الكاتب الفرنسى النابه فكتور مرجريت نداء صارخا إلى « الضمير البشرى والعالم الحر » ، أهاب فيه بذوى الوجدان من بنى الانسان أن يتعاونوا على دفع الظلم وكف الأذى عن مصر التى كابدت أضرار الرق ، وعالجت آصار الذل ، ثلاثاً وخمسين سنة لم يفتُر لصَرْخاها استغاثة ، ولم يسكن لصرعاها أنين ؛ ثم ناشد أعلام الذكاء الفرنسى أن يظاهروه على هذا النداء ، فأمضاه منهم خمسمائة وثمانية آلاف من العلماء والأدباء والفنانين من بينهم چول رومان ، وأندريه چيد ، ورومان رولان ، وهادامار

عَرَض الكاتب الشكور فى ندائه المحَن التى انفجرت على مصر منذ توقح على ضرب الاسكندرية ذلك الأسطول الذى يتقلب اليوم بين شواطئها ومرافئها تقاب العزيز المقتدر والمختال المملك ؛ ثم عَرَّض بتلك الوعود الفواجر التى جرت على لسان غلادستون وغرنفيل وسالسبورى وأضرابهم من المَذّاعين الذين بنوا هذا الملك الضخم على مراوغة اللسان ومماطلة الزمان ومغافلة

الناس ؛ ثم ذكر اضطراب مصر فى الأصفاد ، واستشهاد شبابها فى الجهاد ، وذياد الحلفاء وفدَها المختار عن مكانه فى مؤتمر السلام ؛ وعجب أن يتسع انجيل وِلْسُنَ لحرية الحجاز وأرمينية وألبانيا ، ثم يضيق عن تحرير مصر وهى ما هى فى وحدة الأرض وقوة الدولة وتجانس الأمة ، فيذرها معلقة على رغمها بين حق حليم الطبع وباطل سفيه السلاح ؛ ثم أعاد إلى الذاكرة قول الكاتب الخالد أناطول فرانس : « إن ساستنا أنقذوا من يد العدم ، وأنشروا من طوايا القبور ، عشرين أمة ، فانتهت إلى الحرية بولونيا ، وعادت إلى الحياة أرمينية ؛ ولكن العدل الانسانى يأبى أن يبرأ من تناقضه ونقصه ، فكان من نقص هذا العدل ، ومن حمق المدعين للحزم والعقل ، أن صارت مصر وحدها هى الضحية الكبرى لأكذوبة السلام ! »

* * *

غضبة سامية ، وصرخة داوية ، ودعوة كريمة ! وصدورها عن حفدة الذين أعلنوا بأقلامهم حقوق الانسان ، وأطلقوا بأسيافهم حرية العالم ، أمرٌ جارٍ على مألوف الطبع والعادة ؛ ولكن الأستاذ ڤكتور ينادى غير سميع ، ويخاطب غير واع ! لقد هوى ذلك الضمير الانسانى صريعاً أمام الجشع ، وجثت حرية العالم ضارعة الى الحرص ، واستحال الانسان الجديد إلى معدة مسحوتة هائلة لا تكف عن القضم ، ولا تعيا عن الهضم ، ولا ترسل الميول والعواطف إلا فى نواحى المنفعة . أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر حين رجفت باسمه الرجفة الكبرى ، وأصاخت الى صوته الهدنة العظمى ، ثم جلس على اقدار الشعوب لويد جورج وكليمنصو وويلسن ، وأيديهم على منضدة الصلح فوق أعواد الزيتون وأغصان الغار ، يتقاسمون الحقوق الممزقة ، ويتهادون الحريات المسلوبة ، ويقيمون أنفسهم أوصياء على فرائس اقتطعوها ، ثم عجزوا أن يبلعوها ، فقدموها الى الوصى كما تقدم الشاة الى الأفعوان ، يزدردها فى سكون ، ويهتضمها على مهل ؟! أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر حين تجاوبت بالأنين ضحايا السلام فى تركية ومصر وفلسطين وسورية والعراق ، تستغيث بالولاء للحلفاء فلا تغاث ، وتُلوِّح بالوثائق والوعود فلا تبالَى ، وما ذنبها أنها ضعيفة ، ففيهم أضعف منها ، وإنما ذنبها أنها مسلمة ! أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر وصرخات مصر الشهيدة تتعاقب على أسماع المدنية من غير فترة ، فتمزق أغلفة الأذهان بالحجة ، وتلمس لفائف القلوب بالرجاء ، ثم لا ترتد أصداؤها إلا بالخيبة ؟ أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر والوعود الستون بالجلاء تتساقط من فوق المنبر الدستورى العريق تساقُط الشهب ، يخطف البصر سناها فى جو السماء ، ثم تكون حجارة باردة على الأرض ؟

هؤلاء أبناؤنا الأعزة يا مسيو ڤكتور كما سمعت هناك ورأى إخوانك هنا : يشترون بأنفسهم الغالية الهتاف للحرية ، لعلهم ينبِّهون العامهَ فيبصر ، ويرشدون المبطل فيُقصر ، ويُسمعون المخطئ فيصيب . ولكن الطوائر تئز ، والبواخر تصفِر ، والمصانع تضج ، والمناورات الحربية ترعد ، والخطب الخداعة تهدر ، فكيف تجد الأصوات الرقيقة العذبة سُبلها فى هذه الضوضاء المنيفة الى آذان هى بطبيعتها موقورة عن مثل هذا النغم ؟ ولو كان الضمير الانسانى لا يزال حياً لرأى من خلال الحجب ، وسمع من وراء الآفاق ، ثم وخز النفوس وخزته الإلهية ، فيشعر القوى أنه زل ، ويدرك الغوى أنه ضل ، ويفطن الانسان الى أنه إنسان !

* * *

لقد كنت أود يا مسيو ڤكتور أن ينبسط عطفك حتى يشمل إخواناً وجيراناً يعانون من الذكاء الفرنسى مثل ما نعانى من الدهاء الانجليزى ، ولكننا سئمنا الكلام وأنفنا الاسترحام واحتقرنا الحجج

لقد بلُد الشعور حتى لا يحس إلا ذبابَ السيف ، وثقل السمع حتى لا يدرك إلا قصفة المدفع ، وكَلَّ الذهن حتى لا يفهم إلا كثافة المادة ؛ فأين يقع من ذلك بيان الأدب ومنطق العلم وخيال الفنان يا مسيو ڤكتور ؟ ؟

احمد حسن الزيات

المجنـــــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء يمشي هادئاً يتخيّل في مِشيته، يَرْجُفُ بين الخُطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعرك أن الأرض مُدركة أنه يمشي فوقها.... ولا ينقلُ قدمه إذا خطا حتى يَنْهض برأسه يُحركه إلى أعلى، فما تدرى أهو يريد أن يطمئن إلى أن رأسه معه.... أم يُخيّل اليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة، فهو يهزّه هزّ الراية....

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غُرفةٍ وعرضها — فاذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراء يقلّب عينه في جهاتها متحيّراً متردّداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته....

ورحبتُ به، وأجلستُه إلى جانبي، فأخذ يَستعرِفُ إليّ بذكر اسمه وجماعته وبلده، لا يزيد على ذلك شيئاً كأنه عنترةُ بني عَبْسٍ، لأرضه من طبيعتها جغرافيا، ومن اسمه جغرافيا على حدة. فلما رآني لا أُثبِتُه معرفةً قال: إن بك نسياناً

قلت: وكثيراً ما أنسى، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكر بتاريخ

قال: هذه غلطة الجرائد... ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذ «نابغة القرن العشرين (1)»....

فسرّحتُ فيه نظري، فاذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورهما

وتوسمتُ فاذا وجه ساكن منبسطُ الأسارير ممسوح المعاني، ينبيء بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن دنياه ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسه

وتأملت فاذا طفولة متبلدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل

وتفرّستُ فاذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصّفحة قتلاها أفكارُ المسكينِ وعواطفُه

وتبيّنتُ فاذا رجلٌ مُسترخٍ، مُتفتّرُ البدن، خاثرُ النفس، كأنه قائم لِتَوّه من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلم كان يراه...

وخُيّل إليّ من هذا الخُمول في هذا الشاب أن عليه جوّاً من تثاؤبه وأن المكان كله يتثاءبُ، فتثاءبت

***

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم... وحسبُكَ فخراً أن تكون أستاذه وأخاه وثقته، «فليس على ظهرها اليوم أديبٌ غيري وغيرك...»

قلتُ في نفسي: إنا لله، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري، وكأنما ألمّ بذلك فقال: لستُ مجنوناً؛ ولكني كنت في البيمارستان...

قلت: أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا. إن هذا الذي تسميه أنت هو مستشفى المجاذيب، أما الذي سميتُه أنا فهو مستشفى فقط...

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قوماً ظرفاء يَدخُلهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونهم جنوناً إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طيّاشون متقلبون، إذا ازدُهِيَ أحدُهم لم يُطِقْهُ الناسُ من زهوه وكبريائه وتنطّعه، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة وكأن بينه وبين الله أسراراً؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس في أرقى طبقات عقله، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها

ومثل هذا لا بد له ممن يستجيبُ لهذيانه كما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخياليّ المُبدَع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل. فاذا هو ظفر بمن يُجانسُه، أو يصانعُه، أو يجاريه حَسِبَه مُذعِناً مؤمناً مصدّقاً، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويراه

(1) هذا الشاب المجنون من الأذكياء وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما يجيء في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه

كأنه فى ملكه . . . فيتخذه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق ؛ وقد يزعمه أستاذه ليفهمه من ذلك بحساب عقله . . . . أنه تلميذه

وخشيت أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يسمِّنى أستاذه إلا بحسابٍ من هذا الحساب ، فهو سيعطى الأستاذية حقها ، ولكن كما هو حقها فى لغة جنونه . . . فأصبح فى رأيه تلميذه وصنيعته ، ومحدِّث هذيانه ، وثقته وملجأه ، والحامى من ورائه ؛ قلت فى نفسى : إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلس مثابته من بعد فلا يعرف له محلاً غيره ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « محله المختار » ، فيتبطّرأ إلىّ لسببٍ ولغير سبب ، ويقع فى أوقاتى وقوع السهو لا حساب عليه ويضيع فيه ما يضيع . فأجمعت أن أصرفه راضياً باليأس وقد انتهت نفسه من معرفتى وانتهى عقله إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذ نفسك ؛ ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه وتكاد لا تفى به الساعات الباقية من الوقت و..

فقطع علىّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليل أنى أعطلها فيتعطل الوقت ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمس التى تعيّن منازل النهار ، فسيمرّ الظهر ويحين العصر و ...

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأى إلا رأيته لك ، ولا صحّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتها ، وأنا لا أعتقد أدباً فى مصر إلا ما توافينا عليه معاً « ولا أسلّم جدلاً ، ولا جدلاً أسلّم أن فى مصر أدباء ينالون منى شيئاً ، فهو أنا وأنا هو »[1] ، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمُنّ أنهم « وقعوا منى موقع نملةٍ على صخرة » . « هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنها » . . .

فتهللت واستبشرت ، وقلت له : هذا قرش فهلمّ فاشتر به دخائنك ، وفى رعاية الله . ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكّن فى مجلسه . . .

* * *

وكرهت أن أتغيّر له وما أشك أنه فى هذا صحيح التمييز ؛ فما أسرع ما قال : إن « نابغة القرن العشرين » فتى قوىّ الارادة ؛ فاذا هو لم يصبر عن التدخين ساعاتٍ فما هو بصبور . . . . وإذا لم يثبت لك هذا الأمر عن معاينة .... فما أعطيته حقه

فقلت فى نفسى : لقد غرست الرجل من حيث أردت اقتلاعه ، وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن ابراهيم الشيبانى مرّ به وهو يأكل خبيصاً[1] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلىّ لآكله لها ...

وقالوا : إنه مرّ بسوق البزّازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نُقب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم

فقالوا . هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه فألطفوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سنىّ وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقب وقال : هذا عمل اللصوص . . . . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلام بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قلت : فما استحسنت منها ؟ قال : (مقالة السيما) ...

فقلت : متى كان آخر عهدك برؤية السيما ؟ قال : أمس

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلماً فى مقالة

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) فاقرأ مقالاتك فى الغيب من قبل أن تكتبها . . . .

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا الى ذلك ، والباقى ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن

قلت : إنك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) وهذا يحصر نبوغك فى قرن بعينه ؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت (نابغة القرن) لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبلهما وما بعدها

فرأيت به شَدْهَةً كأنه يفكر فى جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا . وإن هاهنا موضع نظر ، فلو رضيت بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول إنى نابغة قرن خروف . . . .

* * *

فقلت فى نفسى : حماةٌ مُدَّتْ بماء[1] . وإن هذه الوساوس لاتنفك تعرو هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها ، فلأسكت عنه ولأتشاغل بما بين يدى

وسكتُّ وأعرضت عنه لجعل طائفه يعتريه ، وكأن السكوت قد سلَّط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون لا يزالون به حتى يُجَرِّدُوه ويفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه[2] وكَلَحَ وجهه حتى خفتُ أن يثور به الجنون ، فأقبلت عليه وتعلّلتُ بسؤاله ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخاً يعذبه ويُوقِعُ به ضرباً ويغلله بالسلاسل ويشدُّه « بأمراس كتّانٍ الى صُمّ جَنْدل » وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم

قلت : فأنت فى حاجة إلى راحة ويحسن بك أن تأوى إلى مكان تتمدد فيه

قال : إنى منصرف وسأجلس فى ندىّ كذا[3] « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن القهوة »

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمناً لها فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك الندىّ فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة .

واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه

* * *

ثم قال : أراك الآن مُسْتَبْصِراً أني (نابغة القرن العشرين) بعينه

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً . . .

قال : لا . لا . إنك نسيت أن العرب تقول فى التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أى أنا نابغة القرن العشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين »

وكادت نفسى تخرج غيظا ولكني رأيت الحلم على مثل هذا مجرى مجرى الصَّدَقة ؛ وقلت إن أدباء المجانين كثيرا ما يتفق لهم الابداع الظريف إذا علَّلوا شيئاً كذلك القاصّ الذى كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف . . .

فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ . (هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة الى بلدى وهى قرشان)

قلت : هذه هى أجرة السيارة وصَحِبتك السلامة ، ونهضتُ واقفا ؛ ولكنه لم يتحرك

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكثم بن صيفى ، وانى صخر لا ينفجر . . . يابس لاينعصر ، لست كالحجّاج بل كعمر . »

قلت : هذا شىء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والترسُّل

(١) هـذا مثل فى معنى زاد الطين بلة ، والحمأة اذا مدها الماء زادت واتسعت

(٢) أى لمعت غضباً

(٣) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول . وقد انتهينا على ذلك

قال : ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكري أو لذكائي الطبيعي وهو الأصح . . . فبيّن لهذه الجرائد أني خرجت وأني سأطبع الأدب بطابع جديد »

قلت : ولكني لست مراسل جرائد . قال « فاجعلني رسالة وراسلها عني أو أكتب لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفني كلها ، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية ؛ فضلا عن أني كاتب فذ ، وخطيب فذ ، وشاعر فذ . وهذا قليل من كثير ، فهل أعوّل عليك في صلتي بالجرائد أولا ؟ »

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك وقد بلوتهم وبلوا منك فلست في حاجة الى عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسي وقد حسبوني مجنوناً استهوته الشياطين ؛ وماعلموا أن شيطان الشعر هو الذي استهواني كما أن شيطان الحب هو الذي استهواك ... هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي ثمن الغداء ولا أكلفك شيئاً ... »

قلت : فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب . وهم الآن يتغدون ويوشك اذا أبطأت أن توافقهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة

قال صدقت ؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية . فلابق هذا للعشاء وسأطوى الى الليل ...

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل) (١) يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة نخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف

***

فشق ذلك عليه وقام مغضباً ، وتنفست بعده الصعداء الطويلة .... وفتحت النافذة واستقبلت الهواء النقي وأخذت في رياضة التنفس العميق ؛ ثم زاغت عيني إلى الباب فاذا (نابغة القرن العشرين) مقبل مع نابغة قرن آخر . . . .

« لها بقية » (طنطا)

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث

الى . ا ج . بدمشق : سنكتب ان شاء الله مقال (المغنية) فهلا . ولكن دع المرأة وما اختارت . واعلم أن قولهم مغنية ، أو ممثلة ، أو راقصة كلة لها معنيان : أحدهما هذا الذي فيها ، والآخر أنها ... وأنها ... وأنها لا تصلح زوجة الرافعي

فى مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية

ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ريح الثورة الفرنسية الكبرى تهب على الملوكية الفرنسية ، فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة ، سقطت الملوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطرمة ؛ ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا ، ولم تقف عند سحق الملوكية الفرنسية ، ولم تلبث أن غدت ثورة عالمية ترتجف لها كل العروش والنظم فى أوربا القديمة ، وتتحد جيوش أوربا القديمة على مقاومتها واخمادها . ولكن جيوش أوربا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة التى تضطرم بها جيوش الثورة ؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجى ، ولكنها سحقت فى غمر من المعارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم ، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خانعة ذلول تحملها موجة من الطغيان العسكرى لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التى قامت لسحقها

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالمية ، بل هى من بين الثورات التحريرية الكبرى أوسعها مدى وأبعدها أثراً فى تاريخ الانسانية ؛ ذلك أنها قامت فى الأصل على حقوق الانسان ، وجعلت غايتها تحرير الحقوق والحريات العامة من أصفادها ، وسحق كل النظم الطاغية ، وتقديس الفرد وحقوقه ، واعتبار الدولة خادم الأمة فى مجموعها ، وخادم الفرد والأمينة على حقوقه ومصالحه ؛ ولهذا كان ظفرها عظيما ، وأثرها عميقاً فى بث المبادئ الديموقراطية والتحريرية فى أمم أوربا القديمة ؛ ومنذ فاتحة القرن التاسع عشر نجد معظم الأمم الأوربية التى تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية ، وامبراطورية النمسا والمجر تجيش بفورات تحريرية متوالية ، وتطالب باقامة النظم والدساتير الحرة ، ونجد الملوكيات القديمة المطلقة تجد بكل ما وسعت فى قمع هذه الحركات التحريرية

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية على أثر سقوط نابوليون وسحق الفورة العسكرية البونابارتية التى شغلت أوربا مدى خمسة عشر عاماً ، وقامت الملوكيات الطاغيـة القديمة تأتمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التى اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربيـة ، واضطرت معظم الحكومات المطلقة أن تنزل عند ضغطها ووعيدها وأن تبذل بعض المنح الدستورية ؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التى نظمها ودبرها اسكندر الأول قيصر روسيا عند عقد «المحالفة المقدسة» الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سنة ١٨١٥) ، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية ، وأن يحكم الملوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة ، وأن يقوموا بتأييد السلام ؛ ولكن كان غرضها الحقيقى أن تتعاون الملوكيات الثلاث على قمع الحركات التحريرية التى تضطرم بها أمم القارة ، وعلى تأييد الحقوق الملوكية المطلقة ، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقية واخضاعها لهوى العرش وارادته ؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفة الشهيرة ، عدا انكلترا التى كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة

ولكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شىء ، فلم تنجح حركات القمع إلا قدر ما يؤيدها العنف ؛ وكان العنف كالعادة يغذى هذه الوثبات الشعبية ويذكيها ؛ فلم تلبث غير بعيد حتى عادت إلى الاضطرام ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠ نرى الثورات الشعبية تتفجر هنا وهنالك فى أوربا . ثم كانت سنة ١٨٤٨ ، التى يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية ، ففيها سقطت الملوكية فى فرنسا أمام ارادة الشعب مرة أخرى ، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية ؛ وفيها اضطرمت الثورات التحريرية فى ألمانيا ، وفى معظم أنحاء الامبراطورية النمسوية ، وفى كثير من الدول الايطالية ، واجتاحت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ريح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة ؛ ولم

يلبث أن لاح فجر الديموقراطية الحديثة فى الأفق قوياً ساطعاً

— ٢ —

وبلغت الديموقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى ، فانهارت القيصرية الروسية ، وانهارت الأمبراطورية النمسوية ، والأمبراطورية الألمانية ، والسلطنة العثمانية ؛ وقامت جمهوريات فتية ، فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا ، وفى عدة أخر من الدول الجديدة الناشئة التى خلقتها معاهدة الصلح لأغراض عسكرية وسياسية ؛ ثم قامت الجمهورية أخيراً فى اسبانيا بعد أن سقطت ملوكيتها القديمة التالدة أمام الفورة العامة

ولكن هذا الظفر الذى أحرزته الديمقراطية عقب الحرب الكبرى كان خلبا ، ولم يقم على أسس أو روح ديمقراطية حقيقية ، بل استمد من الفوضى العامة التى أحدثتها الحرب ؛ هذا الى أن هذه الديمقراطية الظافرة لم تكن رزينة عاقلة ، بل انساقت غير بعيد الى ألوان خطرة من العنف والتطرف والفوضى . ومن جهة أخرى فقد كانت الديمقراطية قناعا للطغيان المطلق فى روسيا السوفيتية وفى تركيا . وقد أدى تطرف الديمقراطية وتفرق كلمتها ووهن جبهتها غير بعيد الى انهيار صروحها فى ايطاليا حيث قام الطغيان المطلق باسم الفاشستية ، ثم الى انهيار صروحها فى ألمانيا حيث قام الطغيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية ؛ وانهارت الديمقراطية أيضا فى بولونيا وفى النمسا وفى دول أخرى حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة ، وهكذا لقيت الديمقراطية فى بضعة الأعوام الأخيرة من ضروب الفشل والمحن ما لم تلقه قط فى حياتها القصيرة الظافرة ؛ والديمقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها ، ولكنها تناضل فى غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة ومبادئ خصيمة ، وإنما تناضل أيضا قوى عسكرية طاغية هى التى تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة

غير أن الديمقراطية مازالت تحتفظ بميزتها الكبرى ، وهى أنها ما زالت تعتبر قانون الحكم العام ، وما زالت مبادئها هى المبادئ الشعبية الخالدة ، وهى المبادئ التى ترتكز اليها الحقوق والحريات العامة فى كل الأمم المتمدنة ؛ وهذا هو سر بقائها وسر قوتها ، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها

أما هذه النظم الطاغية التى تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم القومية فى دول مثل روسيا وتركيا وايطاليا وألمانيا ، فهى فى الواقع نظم عنف وإرهاب محض ؛ وهى أبعد النظم عن المبادئ الحرة والمبادئ الانسانية : ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية والحزبية قبل كل شئ ، وفى هذه النزعة الفردية الحزبية تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة ؛ وقد قامت البلشفية فى روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة لسيادة الرأسمالية فى الدول الأخرى ؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة للكتلة العامة فى روسيا ، ليست سوى سيادة الحزب البلشفى ، بل هى فى الواقع سيادة عصبة من الزعماء والساسة يحكمون تلك الكتلة الشعبية الهائلة بوسائل العنف والارهاب . نعم تزعم البلشفية أن لها غاية عالمية هى بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم الرأسمالية كلها ؛ وتعمل البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها ودعاياتها فى معظم أنحاء العالم ، ولكن البلشفية ما زالت وقفا على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية المنيفة وحيث تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين فى مصاير الشعب الروسى وفى عقوله وأرواحه . ولقد نسجت الفاشستية فى ايطاليا على هذا المنوال فى تمكين قبضتها من الشعب الايطالى ، مع فارق فى الأسس التى تقوم عليها فهى تقوم على فكرة السيادة القومية والعسكرية ، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال ، (بل رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش ، ويفرضون ارادتهم على الشعب بوسائل العنف ؛ وليس فى الفاشستية ما يميزها الا أنها من حيث التنظيم السياسى تقوم على الفكرة النقابية . وقد كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) فى ألمانيا أحدث ألوان الطغيان المعاصر ، بيد أنها من أشدها إمعانا فى العنف وسحق الحريات والحقوق العامة ؛ وأهم مميزاتها وقواعدها الفكرة الجنسية أو فكرة السلالة والدم ؛ وهى تذهب فى تطبيق هذه النظرية التى تتخذها ستارا لغايات السياسة مذهب الاغراق المثير ، وتصدر باسمها أغرب القوانين التعسفية ، وترتكب أشنع ألوان الاضطهاد والمطاردة ؛ ومع أنها تتظاهر بأنها تطارد اليهودية فى الواقع وتعمل على سحق نفوذها المنصرى والاجتماعى فى ألمانيا ، فانها فى الحقيقة تذهب بعيدا فى تأكيد النعرة الجنسية وتتخذها مثارا لعاطفة من التعصب الجنسى والقومى الشنيع ، وهى بذلك من أخطر الحركات القومية التى تنذر بالانفجار المسلح ؛ وللاشتراكية الوطنية خاصة أخرى ، هى أنها تمعن فى التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه ، فتسلبه كل ارادة وكل

حق فى التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت فى ذلك أكثر إمعانا من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له فى نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هى كل شىء . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان فى تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد الى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء فى جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالمية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالمية ، وإن كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها فى بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى فى جميع العالم المتمدن أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك الدعاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التى قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن المحقق أن مصايرها ترتبط بمصاير زعمائها ومصاير القوى المنيفة التى تسندها ، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام .

على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذى يسحق شعوبا عريقة بأسرها ، وذلك التطور المدهش فى شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تثب أحط العناصر والطبقات الى أسمى الزعامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهى وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التى تثيرها أذهان متعصبة منحطة : نقول لا ريب أن هذه الخواص التى تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتى هى ملاذ قوتها وحياتها ، هى فى الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحدارها الى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

الفلسفة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير فى النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشىء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلسف فلان إذا ظن أنه يمعن فى الغريب ولا يأتى بما ألفه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون فى عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدم التحدث عنه وحديثه فى عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالمصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش فى عصره ، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان

والفلسفة فى بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس فى شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر فى تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلى والخلقى ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قل أن تعرض عرضاً مستقيما ، وكأن الفلسفة فى نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهى جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويعترضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفى الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة المظيمة الشىء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية فى هذا البلد حمى مباح ، وسلعة تعرض فى مختلف الأسواق ، ومتاع

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره . بل نلاحظ فوق هذا أنه كثيراً ما كتب فى الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة فى موضوع آخر ؛ وبذا انعكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها ، وظهرت الفلسفة فى ثوب مشوه منقوص ؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدعياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المختصين تقصيرهم فى التعريف عن أنفسهم وتهاونهم فى الدفاع عن فنونهم وعلومهم

ليست الفلسفة غريبة بالقدر الذى يدعيه المعرضون عنها ، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها . فللزارع فلسفته فى حقله ، وللصانع فلسفته فى مصنعه ، وللتاجر فلسفته فى متجره ، وللرجل فلسفته مع زوجه ، وللزوجة فلسفتها مع بنيها . لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة فى تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح ؛ وتلك ولاشك فلسفة ذات مغزى عظيم . وما أصدق أرسطو إذ يقول : الانسان حيوان فيلسوف . على أن الفلسفة بمعناها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية ؛ وكل همها أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيراً يرتضيه العقل ويطابق الواقع . فظواهر سرورنا ، وألمنا ، وقواعد سلوكنا ، ومعاملتنا ، وآراؤنا ومعتقداتنا ، هى فى جملتها موضوع الدراسات الفلسفية ، ومن منا يمر عليه يوم – بل ساعة – دون أن يحكم على شىء بأنه خير أو شر ، وعلى آخر بأنه صواب أو خطأ ، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح ؟ وهذه الأحكام الثلاثة هى شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم ، يعنيه أن يدرس ظواهرها ، ويضبط قوانينها ، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح . فالفلسفة إذن من الحياة فى صميمها ، أو إن شئت هى الحياة كلها ؛ وكيف لا وهى دراسة للانسان فى مختلف أحواله الفردية والجمعية ، الفكرية والخلقية

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهملها ؛ أو أن نضعها فى الصف الأخير من أبحاثنا ، وهل حاجتنا إلى تعرف المادة فى تمددها وانكماشها ، والأجسام فى مغناطيسيتها وجذبها ، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا فى ميولها ومشاعرها ، وتنافرها وتآلفها ؟ نعم إن دراسة الانسان عسيرة ودقيقة ، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة ؛ ولا أظنها أقل تشويقاً من أية دراسة أخرى . فعناصر الثقافة العامة التى تشغل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الأقليمية ، والاقتصادية ، والهندسة النظرية والفراغية ، والكيمياء ، والطبيعة وما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير . على أن هذه العلوم نفسها نشأت فى حجر الفلسفة وتربت فى كنفها ؛ فقد كان الأغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها ، وكان العلم والفلسفة متآخيين ومتآزرين ، وكثيراً ما كان الفيلسوف عالماً يقنن القوانين العلمية ويوضحها ، وكثيراً ما اهتُدى إلى نظريات علمية على ضوء الدراسات الفلسفية . فطاليس وفيثاغورس الفيلسوفان الأغريقيان كانا رياضيين وعالمين فى الطبيعة ، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته : « لا يدخل هنا أحد ممن لم يلموا بأصول الهندسة » ، وإذا جاوزنا العصور القديمة وجدنا أن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية ، وأن ليبنتز كبير فلاسفة الألمان فى القرن السابع عشر هو مبتكر حساب الجزئيات . ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جميعها مسودة بلهجة وروح فلسفية ، وفلسفة العلوم اليوم هى النقطة الحساسة والرئيسية فى كل مادة من مواد الدراسة الانسانية . فالعلم ينزع ثانية إلى أن يكون فلسفياً وأن يعود أيضاً إلى كنف أم غذته بلبانها من قديم ، والأدب أيضاً يتأثر بالفلسفة فى أسلوبه ومعانيه ، وغاياته ومراميه ، وربما كان السر فى نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التى رق بها شعورهم ، ودق تفكيرهم ، وسمت عبارتهم

فليس ثمة بد من أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ما دامت الحياة تملى علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقى ينهل من حياضها ؛ ومن العار أن نبقى إلى اليوم وليس فى لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجد فيها العامة سلوتهم ، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . إن البحث الفلسفى ، ككل الأبحاث الأخرى ، ضرب من التثقيف لا يصح أن تحرم منه أمة من الأمم ؛ هذا إلى أنه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة ، وأن ينقل الغرب عنا كما ننقل عنه ، وبذا تنتظم دورة الفلك ، ويعود التاريخ إلى مجراه ، وتتصل الفلسفة العربية الحديثة بالفلسفة الاسلامية القديمة ، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية ، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشآمية وعراقية ؟

ابراهيم بيومى مدكور

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

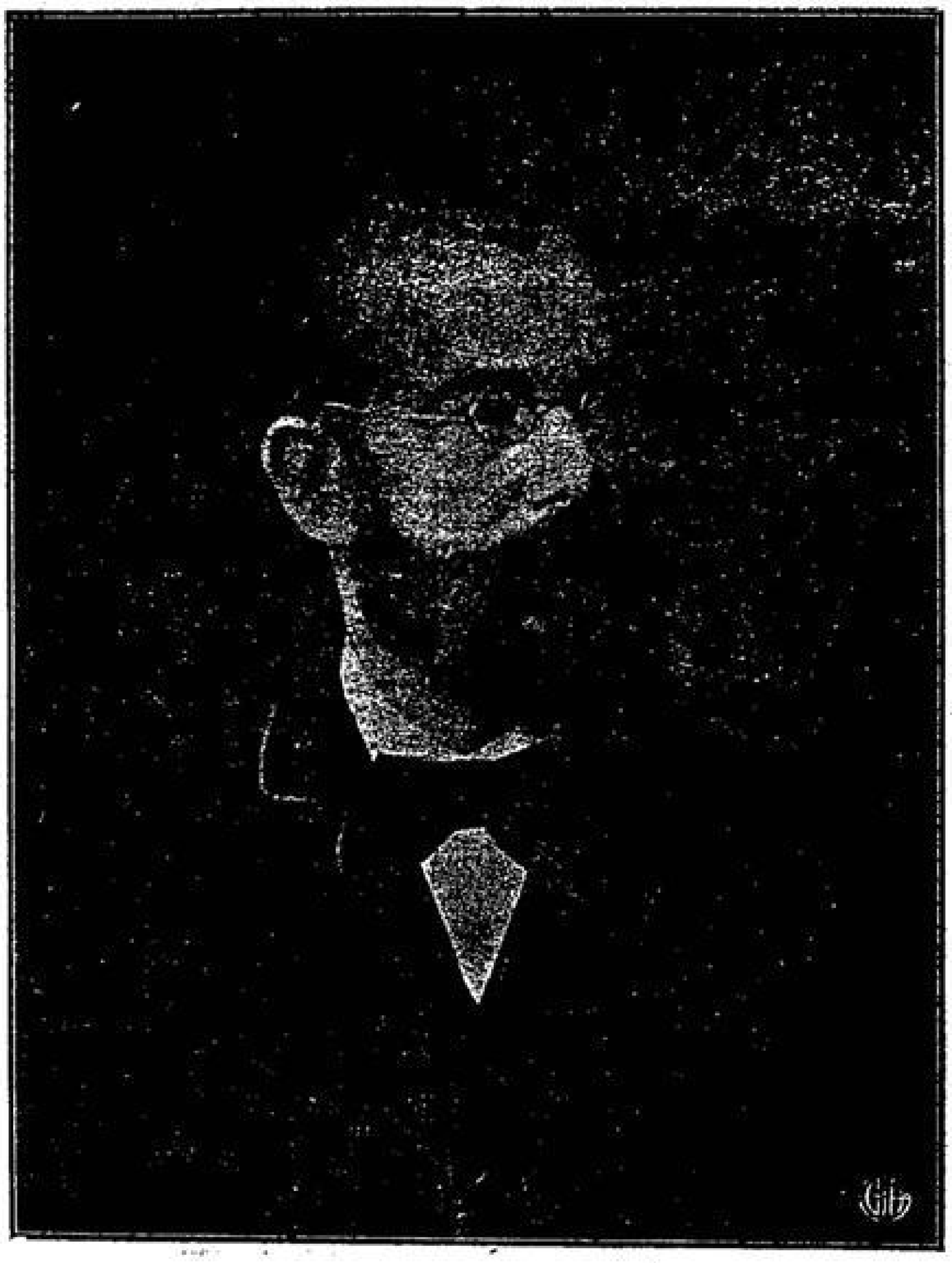
رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسـباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحـلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

فى السنوات ذات الأحداث العجيبة والمفاجآت الغريبة من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٧٠ ، بينا بستور يخلّص صناعة الخل ويكشف عما دهى دودَ القزّ فيُدهش الملوك ويرضى الأمم ، كان شاب قصير القامة قصير البصر ، تبدو عليه ملامح الجد ، يدرس الطب فى جامعة « جوتنجن » Gottingen بألمانيا . وكان اسم هذا الشاب روبرت كوخ Robert Koch ، وكان طالباً مجتهداً . إلا أنه بينما كان يجرى بمشاريطه فى جثث الموتى فيقطّـعها إربا ، كان يحلم بغابات إفريقيا وبصيد الأنعام فيها . وبينما كان يحفظ فى رغبة واجتهاد أسماء المئات من عضلات الانسان وعظامـه ، كانت صُفّارات السفن الذاهبة للشرق ترنّ فى أذنه فتذهب من رأسه بكل تلك الأسماء اللاتينية والرّطانات الاغريقية

كان كوخ يود أن يضرب فى الأرض ليكشف عن مجاهلها ، أو أن يكون جراحاً فى الجيش ليكسب الشارات والأوسمة ،



كوخ

أو ينال منصب طبيب فى سفينة تمخر به عباب البحار الواسعة فيذهب فيها إلى حيث لم يذهب قبله إنسان . ولـكن القدر خيب آماله ، فانه لم يكد يتم دراسته عام ١٨٦٦ حتى وجد نفسه فى مدينة هامبرج Hamburg فى مستشفى للمجاذيب يتولى فيه منصب طبيب مقيم ؛ وفى هـذا المستشفى امتلأ سمعه بصراخ المجانين وأحاديث البلهاء فلم تـكد أذنه تسمع أصـداءَ بستور ونبوءاته بوجود مكروبات فظيعة تفتك شر فتك بالانسان ؛ وظل ينصت لصفير السفن ، وفى الامساء كان يطلب المشى للرياضة فيصطحب صديقة له كانت تسمى : « إمى فراتس » Emmy Fraatz ، وكان يهبط بها إلى شاطئ البحر حيث السفائن تغدو وتروح ، وسألها الزواجَ منها ، وخال أن يُغريها بالقبول فذكر لها أمله فى طوافه حول الأرض ومسيره إلى الشرق ورؤية البلاد والشعوب ، فقالت له إنها تتزوجه على شريطة أن يصحو عن أحلامه وينسى الشرق ومغامراته ويفتح لنفسه عيادة فى بلد ألمانى فينفع أهله وبلاده

وأنصت كوخ إلى إيمى وإلى صوتها الساحر ساعة، وازدحمت فى خياله صورٌ شتى من سعادة خمسين عاماً يقضيها فى العيش الهنىء معها، فطردت هذه الصور صورَ الفيلة والأنمار من رأسه، واستجاب نداء عروسه فاستقر لممارسة الطب، وفى سبيله أخذ ينتقل من قرية بروسية إلى أخرى على نمط من الحياة لا يختلف — حياةٍ رتيبة ليس فيها صخبات الحياة وما تتضمنه من متع ولذائذ

وفى هذه الفترة من الزمان، حين كان كوخ يكتب الوصفات للمرضى وينتقل فى سبيل صناعته بين ديارهم المتباعدة على ظهر حصانه، يستقبل وكفات المطر من فوقه، ويشق لنفسه طريقاً فى الوحل من دونه، ويسهر الليالى فى ديار النُفساء من أهل الريف، فى هذه الفترة من الزمان كان «لستر» Lister بأسكتلندا آخذاً فى إنقاذ حياة الكثيرات من النساء عند الوضع بدفع غائلة المكروب عنهن، وكان أساتذة الطب وطلابه فى أوروبا آخذين فى الإصغاء إلى ما يقول به بستور من نظريات، وما يعزوه إلى المكروب من أمراض، واختلفوا فى الذى يقول واشتجروا، وقام من بينهم رجال يجرون تجارب أعوزها حذق المجربين وذكاء الباحثين، وكان كوخ بمعزل عن كل هذا، كان منقطعاً عن بيئة العلم انقطاع «لوفن هوك» عنها قبل ذلك بمائتى عام، عامَ قام لأول مرة فى مدينة دلفت بهولاندا ينحت العدس بيد ما عرفت من قبل للعدس نحتاً: وخيل للناظر إلى «كوخ» أن القدر قسم له أن يكون طبيباً عادياً متواضعاً يواسى المرضى ويحاول ما استطاع تخليصهم من الموت، وعزّ ذلك مطلباً عليه وعلى أطباء ذلك الزمان، ورضيت إيمى بقسمة القدر، وفخرت بزوجها لما كسب خمسة وعشرين مركا فى يوم كثير العمل وفير المرضى

ولكن كوخ كان غير راض، وانتقل فى منصبه من قرية بليدة إلى قرية أكثر بلادة، حتى أدى به المطاف إلى قرية فُلِشْتين Wollsteiu فى بروسيا الشرقية، وفى هذه القرية أتم عامه الثامن والعشرين، فأهدت اليه زوجته فى عيد ميلاده مكرسكوباً يلهو به ويتسلى

وكأنى بهذه المرأة الطيّبة تقول فى نفسها عن اهداء هذا المجهر إياه: «لعل هذا المجهر يُمد فكره عن عمله الذى لا يرضاه... لعله يروّح عن نفسه قليلا ويُكسبها شيئاً من الرضاء... إنه دائم التحديق الى كل شىء بعدسة جبينه الصغيرة العتيقة...»

وا بؤسى لهذه المرأة الطيبة الساذجة! لقد أهدت اليه هذا المكرسكوب غير عالمة أنها بهذا الاهداء إنما فتحت له باب مغامرة تتضاءل الى جانبها مغامرات كان يحلم بها فى أقطار الهند وجزائر الاقيانوس السفلى. فتلك الرؤى التى رآها بستور جاءت كوخَ على يأس تتأوّل عند بابه، وفى نفس تلك الغرفة التى استقبل فيها مرضاه، تلك الغرفة المليئة بالدواء، تلك الغرفة التى ضاقت به وضاق بها وبدوائها، تلك الغرفة التى عاف فيها الطبَّ حتى كاد يصبح داء. نعم فى تلك الغرفة استحالت أحلام بستور حقائق ارتآها كوخ فى جثث الأبقار ورِمَم الأغنام من خلال عدسات ذلك المجهر الذى أهدته زوجته إياه للهو والسلوى، كأنى بكوخ يقول لزوجته: «أنا أكره هذه الخدعة التى يُسمونها طبّا... وليس ذلك لأنى أكره تبرئة الأطفال من الدفتيريا... ولكن الأمهات يأتينني صارخات مستغيثات يطلبن النجاة لأبنائهن وبناتهن... فما ذا أنا صانعه لهن؟ أتحسس لهن فى الظلماء، وأطمئنهن وارجّيهن حين لا طُمأنينة ولا رجاء. وكيف لى بعلاج الدفتيريا وأنا أجهل حتى أسبابها، وأكثر أطباء ألمانيا يجهلون أسبابها كذلك». يَبُثّ صاحبنا شكواه المرّة لإيمى فتضيق نفساً وتحتار فكرا وتغتاظ من هذا الزوج الذى لا يرضى أبدا، لأنها كانت تعتقد أن واجب الطبيب الشاب يتأدّى وينتهى إذا هو بذل كل ما فى وسعه واستعان بعلمه الكثير الذى حصّله فى مدرسة الطب يوم كان طالبا

وعلى الرغم من هذا فكوخ كان لاشك على حق. فما الذى كانت الأطباء تعلمه من أسباب الأمراض الوبيئة؟ لاشىء. نعم قام بستور بتجارب رائعة ولكنها لم تثبت شيئا من سبب اقتباس الانسانِ الوباءَ ولا من كيفية اقتباسه. رفع بستور بيمناه مشعلاً وضاء كبيرا وسبق به الى تلك الظلمات، صارخا بالأمل، داعيا للنصر، يحدّث الناس عاليا بانهزام الأوبئة قريبا، ومحو الأمراض من سطح الأرض وشيكا، ولكن الأوبئة لم تكن بدأت تتخاذل، والأمراض لم تكن أخذت تتزايل، والفلاحون فى قرى روسيا التى خرّبتها الجائحات بقوا على أسلوبهم

في دفعها ، وظلوا على عادتهم يربطون أربعا من أراملهم الى محراث ثم يدورون بهن في سكون الليل وراء القرية يرسمون حولها أخدودا هو في حسبانهم خير نطاق يدفعون به شر الوباء . وهل كان لدى الأطباء أسلوب في دفعه خير من هذا !

كأني بمدام كوخ تحاول أن تجد لزوجها مخرجا مما هو فيه فتقول : « ولكن يا روبرت إن أساتذة برلين وكبار أطبائها لا بد عالمون أسباب هذه الأدواء التي لا تستطيع أنت علاجها » كان هذا من خمسين عاما أو تزيد ، ولكني أعود فأقول إن أكبر الأطباء في هذا الزمان لم يكونوا يدرون عن الوباء أكثر مما درى هؤلاء الريفيون الذين ربطوا الأرامل جهلا الى المحاريث . قام بستور في باريس يتنبأ بأن البحث لا بد كاشف عن قريب تلك المكروبات التي هي لاشك سبب السل وحتف المسلولين فنهض له رجال الطب أجمع يتقدمهم بيدو Pidoux ذو المقام الرفيع والأزرة البارقة الصفراء يدفعون خرف هذا النبيّ المأفون

صرخ بيدو كالرعد يقول : « أجرثومة خاصة تحدث السل وتقضي على المسلولين ! خرافة مؤذية وخاطرة مخطرة ! إن السل مفرد وجمع في آن . غايته موت الأنسجة في عضو بالعدوى وذلك عن طرقات عدة من واجب الطبيب وخبير الصحة محاولة سدها » بمثل هذا الهُراء وهذا الكلم الفارغ الذي لا معنى له كان يدفع الأطباء نبوءات بستور

— ٢ —

أخذ كوخ يقضي أمساءه يلهو بمجهره الجديد ، ويتعرف كيف يحرك مرآته ليعكس بها على منظوراته من الضياء القدر الذي يريده ، ويتعلم ضرورة تنظيف صفائح الزجاج وتلميعها قبل أن يضع عليها قطرات الدم من أجسام الخراف والأبقار التي قضى عليها مرض الجمرة Anthrax (١)

وكان هذا المرض الخفي الغريب قد أخذ يقلق بال الزارعين في جميع أقطار أوروبا ، فكان تارة ينزل على الزارع صاحب الألف من الأغنام فيقضي عليها بالهلاك ، وعليه بالخراب ، وقد ينزل على الأرملة الفقيرة وبقرتها الوحيدة فيصبحها وقد عزّها الرزق وساءت مصيرا . لم يكن لهذا المرض أسباب معروفة أو خطة مرسومة يجزي عليها في تخيّر ضحاياه . فقد يُصبح الصباح على القطيع من الغنم ، فتأخذ عينك منه شاةً سمينة صحيحة جميلة ، لا تكاد تستقر على أرجلها نشاطا ومرحا ، فلا يأتي عليها المساء حتى تعاف الطعام وتميل برأسها بعض الميل ، ولا تشرق عليها شمس الغد حتى تلقاها باردةً هامدة متصلّبة ، وقد استحال دمها الى دم أسودَ كالليل . ثم يعود فيحدث نفسُ هذا لشاة ثانية ، فثالثة ، فسادسة ، فسابعة ، لا يقف عند عدد ولا ينتهي عند حد . ثم يأتي دور الفلاح ودور الراعي ودور فرّاز الأصواف ودور تاجر الجلود ، فتتفجر جلودهم عن خراجات مؤلمة قبيحة ، أو يلفظون آخر أنفاسهم من التهاب رئوي لا يُمهلهم طويلا

بدأ كوخ ، كما بدأ من قبله لوفن هوك ، بدأ يستخدم مجهره لغير غاية معروفة وبغير قصد محدود . فأخذ ينظر به كل شيء ، ويُحدق من خلاله في كل ما يأتي ، حتى وقع على دم الأغنام التي قتلها داء الجمرة Anthrax ، وعندئذ أخذ يتجمع فكره على غاية ، ويقف جهده على قصد ، وعندئذ أخذ يتناقص نصيب مرضاه من هم نفسه ، فقد يقصد إلى مريض فيأتي في طريقه بين الحقول شاة نافقة فينسى المريض وعيادته إياه ، وأخذ يساور الجزارين يسألهم عن الضياع التي بها تقتل الجمرة الشياه . ولم يكن لكوخ من فراغ الوقت مثل الذي كان للوفن هوك ، فكان يتحين الفرص بين تطبيبه لطفل يصرخ من وجع بطنه ، وبين خلعه ضرس قرويّ جاء يفزع اليه من ألمه . في فترة من تلك الفترات جاء بدم أسود من بقرة ماتت بالجمرة ، فوضع منه قطرات بين رقيقتين من رقاق الزجاج النظيف البارق ، ونظر اليها بمكرسكوبه فوجد بين كُريات هذا الدم المخضرّة السابحة أشياء أخرى غريبة تراءت كأنها عصيّ صغيرة ، وكانت هذه العصيّ أحيانا قصيرة ، وأحيانا قليلة المدد ، تسبح في ارتعاد قليل بين كريات الدم . وتراءت له كذلك عصيّ أخرى تعلق بعضها في أطراف بعض من غير مفصل يجمعها ، وقد يتشابك المدد الكثير منها حتى تصير خيطاً طويلا أرفع ألف مرة من خيط الحرير

« ما هذه العصيّ ؟ ... أهي مكروبات ... أهي حيّة ...

(١) هذا هو المرض الذي نخشاه الى اليوم لاسيما الرجال منا عند الحلاقة وذلك لأن فرشة الحلاقة تصنع من شعر البهائم فاذا لم يطهر هذا الشعر تطهيرا كاملا أصاب المكروب وجه الانسان

إنها لا تتحرك ... أم هو الدم السقيم فى هذه الحيوانات المرزوءة يستحيل إلى هذه العصى والخيوط ؟ » . على هذا النحو دار فكر كوخ فى الذى رآه . وكان رجال العلم قبله قد رأوا ما رآه . فداڤان Davaine ورايار Rayer فى فرنسا أبصروا نفس هـــذه الأجسام فى دم الأغنام النافقة ، وأعلنا أن هذه العصى بَشِيلاّت[1] Bacilli ، وأنها مكروبات حيّة ، وأنهـا لا شك سبب الجمرة anthrax الذى لا مراء فيه ــ ولـكنهما لم يثبتا ذلك بالدليل ولم يصدقهما فيما زعما أحد فى أوربا غير بستور . على أن صاحبنا كوخ لم يكن ينصت كثيراً إلى ما يقوله الناس ، ولم يكن يهتم كثيراً بما يرتئيه البحاث ؛ كان الأطباء من حوله يرتابون فى الذى يراه ، ويضحكون منه فى الذى يأتيه ، فلا يصغى لارتيابهم ولا يهتز لضحكهم ، حتى حماس بستور لم يُغره يوماً بالوثوب إلى نتائج لم ينضجها البحث ويمحصها التجريب ؛ ومن حسن حظ كوخ أنه لم يكن سمع به أحد ، فلم ترتفع إلى ظهره سواعد الأشياع والمريدين تدفعه قُدُماً إلى فتوحات فى عالم المـكروب عاجلة غير ناضجة ؛ كان فى خمول ذكره ربّ نفسه ومالك أمرها[2]

حدّث كوخ نفسه قال : « أنا لا أستطيع الآن الاهتداء إلى طريقة أعرف بها أهذه العصىّ والخيوط حيّة أم ميتة ، فلأدع هذا مؤقتاً ولأدرس خواصها الأخرى ... » ولم يلبث أن أوقف دراسته للأغنام المريضة ، واتجه يدرس الأغنام الصحيحة ، فذهب إلى مذابحها ، وزار الجزارين وخالط تجار اللحوم ونادمهم ، ورجع بدم كثير من عشرات البهائم السليمة ، واسترق من زمن مرضاه ليفرغ لمـكرسكوبه ، فكان يجلس اليه ساعات متصلة طويلة ينظر منه إلى هذا الدم الـكثير الصحيح الذى جمع ، فقلقت زوجه من اهماله عيادته

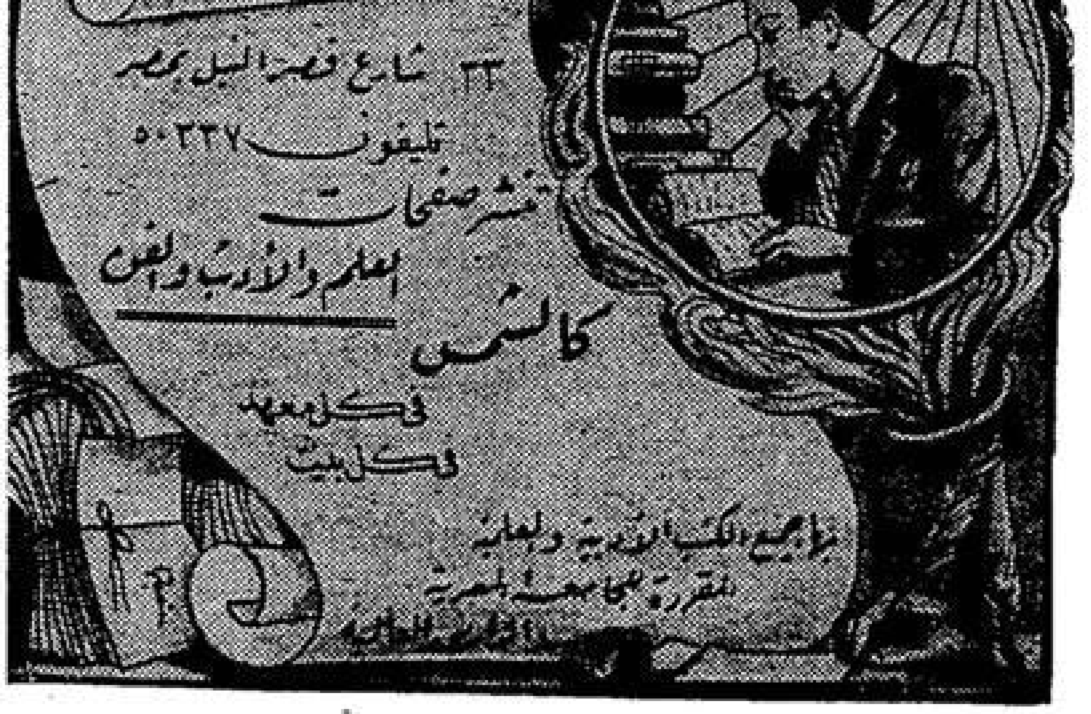
قال كوخ : « إنى لا أجد فى دم هذه الحيوانات الصحيحة تلك العصى والخيوط أبدا ، وهذا حسن جميل ، ولـكنه لا يدلنى أهذه الأجسام بَشِيلاّت أم لا ، لا ينبئنى أهى حية فى استطاعتها النمو والتوالد والتكاثر ، أم هى كبعض الجمادات ؟ »

ولـكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك ؟ كيف السبيل إلى إثبات أن هذه العصى حية ؟ أخذ هذا السؤال يملأ نفسه ويملك عليه حسه ، وطلبه المسلولون الذين أعيا الأطباء داؤهم ، وطلبه الأطفال وقد سدت الدفتريا عليهم منافس الهواء ، وطلبته العجائز استشفاء من مرض موهوم غير كائن ، ولـكن اشتغال صاحبنا بأمر هذه العصى لم يبق منه غير فضلة قليلة لمرضاه ، حتى لنسى أن يكتب اسمه على وصفاته لهم . وآنست فيه زوجه الهم والغمّ وكسوف البال . ودعا النجّار يوما وسأله أن يقيم فى حجرة العيادة حاجزا خشبيا . وقضى الساعات وراء هذا الحاجز بين مجهره وقطرات الدماء السوداء وفئران بيضاء تمرح وتلعب فى أقفاص أخذ عددها يزيد على الأيام .

وكأنى بك تنظر الى هذا الحاجز الخشبى فتجد على جانب منه مريضة انتظرت طويلا فأخذت تحك الأرض بنعلها سأما وقلقا ، وتجد على الجانب الآخر طبيبنا الفاضل يتمتم لنفســه فيقول : ليس لى من المال ما أشترى به أغناماً وأبقارا لتجاربى . ولو كان لى هذا المال لـكان من المتعذر إحضارها إلى هذا المـكتب الصغير . أما هذه الفئران فصغيرة رخيصة ، وهى لا تشغل حيزاً كبيراً ، ولعلى أستطيع أن أعطيها مرض الجمرة . . . ولعلى إذن أثبت أن هـــذه العصى تنمو حقاً فيها . . . »

يتبع

أحمد زكى



(١) البشلة لفظة لاتينية معناها العصية أى العصى الصغيرة وتطلق على فصيلة من البكتيريا

(٢) هذا يذكرنا بقول الشاعر : وخمول ذكرك فى الحياة سلامة . المترجم

مذاهب الفلسفة

٣ ـ المذهب الطبيعي

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلاً ! فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه دكا ، لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض الدليل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً ، وبطل هذا الهراءُ الذى يهرف به الطبيعيون ، ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلى :

(١) إن ما فى الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلا أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتدبير ، فاذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المطردة ، فلا بد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين وأكسبها مالها من قوة وثبات . كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة ، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عُددها وانتثرت أجزاؤها ، أمكنها أن تلتئم من تلقاء نفسها ، وأن تبدأ السير والحركة من جديد !

(٢) إن مجرد وجود فكرة الله فى أذهاننا دليل على حقيقة وجودها فى الخارج ؛ وذلك لأننا نتصور بعقولنا كمالاً مطلقاً ، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً ، فان لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود ، وفى هذه الحالة ـ أى فى حالة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني ـ نناقض أنفسنا ، فنكون كمن يقول : « إنى أتصور كمالاً مطلقاً ولكنه ناقص ! » مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان

وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف

وبعد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد فسر لنا شيئاً ؟ إن قضيته باختصار هى أن الكون كله مادة يسيرها القانون ، وأن العقل الانسانى كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع فى سيرها نفس القوانين التى تسيطر على قطعة من الحجر !

(١) أما إن الكون مادة فقط ، فلا يقدم ذلك فى القضية ولا يؤخر ، لأنه قول لا يعلل شيئاً بعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن الذرة المادية ليست كائناً بسيطاً ، بل إن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركب والتعقد وإنها قادرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول ، كذلك لم يعد الحد الفاصل بين المادة والقوة محددا واضحا كما كان من قبل ، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة ، وأن الواحدة قد تتحول إلى الأخرى وبالعكس ، أى تتحول القوة إلى ذرة أو الذرة إلى قوة ، وإذن فلا يكفى فى تعليل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة ، لأن فى هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل

(٢) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية ، وأن حقيقة الأحساس كما يقول هوبز إن هي إلا حركة فى الجهاز العصبي ، وأن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية ، أى أنه مجموعة حركات متعاقبة ، فيكفى لهدمه أن نطالبهم مثلا بشرح هذه العبارة : « أنا أحب هذه الوردة الجميلة » إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك فى وجودها ؛ فهل يقول الماديون إن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين ؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً ، ولكنك لن ترى « حباً » ولو حدقت فى مجهرك عاماً كاملا ! ! هذا ، وإن لنا أن نسائل الماديين : لماذا لا تنتج الحركة فى كل ظواهر الوجود المادى إلا حركة مثلها ، ثم هى فى الانسان تنتج إحساساً وفكرا ؟ وما أحسبنا ظافرين منهم بالجواب ! وإذن فقد عجز المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة العقل كما فشل فى شرح المادة نفسها

(٣) وأخيراً ، يقول أنصار هذا المذهب إن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية ، ولكن أى عقل يكفيه هذا التفسير ؟ إنى أرى مثلا هذه القطعة من الحديد تتمدد نهارا وتتقلص ليلا ، فلماذا ؟ سيقولون إنه قانون الحرارة المعروف الذى تتمدد المادة على سننه وقواعده ، ولكن لماذا تمدِّدُ الحرارة الأجسام ؟ فان أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشىء عن تصادم الذرات أثناء تحركها ، فسأعود إلى استجابتك : ولماذا يحدث هذا ، حتى تقر معى بأن هنالك آخر الأمر مايتعذر تعليله بأصول هذا المذهب ، وأن القوانين التى يلجأون اليها لتعليل ظواهر الكون هى بدورها تحتاج الى التعليل

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

لقد لبثت الفلسفة دهرا طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعا . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها – فى الأعم الأغلب – على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحوا جديدا ، فلا يكون من شأنه كنه الشئ ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة ، وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد الى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ ان العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العمليـة الواقعة ، فليست مهمته أن يصوّر بريشته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الأسباب .. ولكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينـة على انجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شئ يؤثر فى الحياة أثرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يعوّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلاً

والواقع أن معظم الناس يتبعون فى حياتهم العمليـة أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التى يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانيـة وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعا بفداحة عبئها... فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ، فسلوكنا العملىّ هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا . وليست أفكارنا هى التى توجه أعمالنا . ولقد قال موسولينى يوما إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه الى أقصاه فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ، فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة الى الأمام بما تعجز عنـه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشـدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولو لا ذلك لظلت الانسانيـة فى حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير .

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساسا لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ، وهذا بعينـه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى

حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا في كثير ولا قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الكهرباء هو ما نعمله وما تؤديه .
وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المشاكل الفكرية التي أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانباً كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التي تنشأ عنها في حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

يتبع **زكى نجيب محمود**

أندلسيات :

١ ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

تمهيد :

أما وقد خطت « الرسالة » هذه الخطى الرغيبة الموفقة ، وبلغت المبالغ في الفخامة والضخامة والطرافة والاحسان ، والحشد والاحتفال ، والعناية بالدراسات الأدبية المتمة الموفقة ، والترحيب بكل ما يقدم إليها من الموضوعات القيمة الفائقة ، فلماذا لا ألقى دلوى أنا الآخر في الدلاء ، وأنشر في « الرسالة » من الآن شيئاً مما تنطوى عليه أضابيرى الأندلسية الزاخرة بشتى الموضوعات في هذا الفردوس الاسلامى المفقود ـ كما كان يسميه فقيد العروبة صديقنا المرحوم أحمد زكى باشا ـ فمن ترجمة أديب إلى قصة شاعر إلى تاريخ فيلسوف إلى حياة عالم إلى طرفة أدبية إلى نبذة فلسفية إلى تحفة علمية إلى شطحة صوفية ، إلى ما شئت مما تهيأ لى أن أعكف على دراسته منذ نيف وثلاثين عاماً حتى صرت أطول له عِشرة ، وأبطن به خِبرة . . . ولا تسلنى لماذا تولعت هذا التولع بدراسة الأندلس وكل ما يمت إلى الأندلس بسبب ، فذلك ما أجهل أنا أيضاً علته . . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف وقضى الله أن أكون ممن شغفه حباً هذا الفردوس الذى إذا أنت حاولت أن تنزه نفسك بين رياضه النضرة المزهرة المثمرة ، تجتلى أنوارها ، وتجتنى من أَنَم أثمارها ، وتستمع إلى تغريد بلابلها ، وتتروّى من رحيق جداولها ، ألفيت ما ينبعث له عجبك وإعجابك ، وتشتهى مذاقه حتى يسيل له لعابك ، ويتأرج عبيره المفغم فيملأ خياشيمك طيباً ، ويستخفك تغريده المنغم فتترنح له تطريباً ؛ بيدَ أنك إذا أنت حاولت هذا الامتاع من طريق الأسفار التى وضعت فى الأندلس قديماً للقيتَ من الألاقى ما لقيت مما لا يكاد ينهض به الا الأفراد أوتوا من الشوق ما يجلدهم على معاناة البحث والتنقيب والارتياض بتذليل كل صعب عسير . ومن ثم استخلصت لك من نادرة الأسفار ، ومغربة الأخبار ، باقة جمعت مختلف الأزهار ، وسفطاً يحتوى شتى الأثمار ، وحاكياً يسمعك أحسنَ النغم ، وناجوداً تحتسى منه شراباً لا إثم فيه ولا لمم

أوّه لقد شط القلم ، وسجعت ثم سجعت ، وتلك التى تسنك منها المسامع ... ومن عذيرى من الفتح بن خاقان إذا هو أعدانى بسجعه ، وتأثر طبعى بطبعه ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ؟ ولكن لا تُرَع فسوف أتجنب السجع ما أمكننى تجنبه ، وكذلك لا تتوقع ما دمت بصدد هذا الفتح أن ستسمع سجعاً أندلسياً كثيراً قد يضجرك ويسلمك إلى السأم والملال . فسوف أشمشع كل أولئك بما يلطفه ويسيغه إن شاء الله . . .

وإذا كنت أقدم بين يدى كلماتى قصة الفتح بن خاقان فليس ذلك عن قصد قاصد ، ولعل الذى وجّه الذهن اليه الآن هو ما أخذته عينى أخيراً فى بعض التواليف الحديثة الموضوعة فى بلاغة العرب فى الأندلس لبعض أصدقائنا من أساتيذ الجامعة إذ يقول : إنه لم يترجم للفتح بن خاقان غير ابن خلكان ، وأن المقّرى لم يترجم له فى نفح الطيب . . . مع أن المقرى ترجم له كما ترجم له غير واحد . . . واليك بعد ذلك قصة هذا الأديب الأندلسى :

الفتح بن خاقان

ظهر أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسى الاشبيلى فى عصر هو من خير العصور ومن شر العصور فى وقت معاً : كان عصراً ذهبياً من ناحية الثقافة ، إذ كان عصراً يفهق بكل أنواع المعارف ، من علم وأدب وفلسفة ، وكان فى الوقت ذاته عصر اضطراب سياسى مزعج . . وبينا الأندلسيون زمن ملوك الطوائف متمتعون بحرية لاحد لها ، يتبجحون فيها ما شاء لهم التبجح ، ويلاقى مثقفوهم من ملوكهم أقصى غايات الأريحية

والأكرام يعيشون فى أذرائهم عيشاً تلين لهم مثانيه ومعاطفه ، وتدنو عليهم مجانيه ومقاطفه ، إذ أن ملوكهم كانوا كذلك أدباء أفاضل ، وعلماء أماثل ، أثرت فيهم الحضارة الأندلسية أثرها ، فرققت من حواشيهم ، وألانت من جوانبهم — بينما هم كذلك ، وجفون الخطوب عنهم نيام ، إذ قلب لهم الدهر الخؤون ظهر المجن ، ولبس لهم جلد النمر ، فكاب عليهم الأسبانيون من الشمال ، وطمع فيهم برابرة العُدوة — مراكش — من الجنوب ، فغزاهم المرابطون الخشنون وأزالوا ملكهم ، فاستحالت حال الأندلسيين ولا سيما فى زمن على بن يوسف بن تاشفين ذلك الملك الذى كان إلى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين كما يقول المراكشي صاحب المعجب ، ويقول عنه أيضاً : واشتد إيثاره — أى إيثار على بن يوسف بن تاشفين ملك مراكش والأندلس — لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم . وفى ذلك يقول ابن البنّى — شاعر أندلسي سنترجم له : —

أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم فى العالم

« ابن القاسم واشهب وإصبغ هم من أئمة مذهب الامام مالك الذى كان المذهب الوحيد المعمول به فى المغرب والأندلس »

إلى أن يقول : « ولم يكن يُقرَّبُ من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلمَ الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله « صلعم » فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء . ودانَ أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شيء من علوم الكلام — التوحيد — وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت الى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله (١) أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد حتى سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها . واشتد الأمر فى ذلك ؛ ثم قال : ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجد ، وأبى بكر محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة ، وأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون — صاحب القصيدة المشهورة التى يرثى بها بنى الأفطس من ملوك الطوائف والتى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصوَر

« وسترى تراجم هؤلاء الأفاضل قريباً » فى جماعة يكثر ذكرهم . إلى أن قال : ولم يزل أبو عبد الله بن أبى الخصال وأخوه أبو مروان كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخّرَ أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن ردمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها . أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول : وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله : أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلامَ يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؛ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقاباً (٢) ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم . . . فى أمثال لهذا القول فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبى عبد الله أخيه : كنا فى شك من بغض أبى مروان

(١) يريد كتبه التى فى علم الكلام والمنطق والجدل على طريقة الفلاسفة
(٢) اذ كانوا ملثمين

المرابطين والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة ، ثم قال : واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا فى ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالأمر منه . . . وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه ، وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس .

***

- نجم أبو نصر الفتح بن خاقان فى هـذا العصر الذى هو كما أسلفنا من خير العصور الأندلسية من ناحية الثقافة واكتظاظ الأندلس بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء ، وفى الوقت ذاته هو من شر العصور إذ كان عصراً سياسياً سخيفاً كما ترى

ولد الفتح بن خاقان سنة ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م ، أى قبل أن يدال للمرابطين من ملوك الطوائف بسنتين . أما وفاته فقد اضطربت فيها كلمة المؤرخين فحكى ابن خلكان أنها كانت سـنة خمس وثلاثين وخمسمائة - ١١٤٠ م - وقال ابن الأبار القضاعى فى معجم أصحاب الصدفى إنه توفى ليلة عيـد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وقال الوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب إن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام ٥٢٩ والفرق بين ما رواه ابن الأبار وبين ما رواه لسان الدين بن الخطيب هو قريب من أربعة أشهر كما ترى . على أن ابن خلكان حكى ما رواه لسان الدين بن الخطيب أيضاً . . . وقال لسان الدين بن الخطيب : وأبو نصر الفتح بن خاقان من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب (١) . وبضم كلام لسان الدين هـذا إلى قول الحجارى فى المسهب فى حق الفتح : طلع من الأفق الأشبيلى شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسـناؤها - يبدو لنا أن قرى يحصب هذه من كورة إشبيلية ، وقد تكون من كورة أخرى من كور الأندلس نزح منها الفتح إلى إشبيلية واتخذها مقاماً له ؛ وقد يريد لسان الدين بن الخطيب أن أصل الفتح من هذه القرية ، أما هو فقد ولد بأشبيلية بعد أن نهد اليها آباؤه الأقربون وأقاموا بها ؛ وأياً كان مسقط رأسه فقد نشأ فى أشبيلية وفيها كما يظهر أخذ الأدب - كما يحدثنا لسان الدين بن الخطيب - عن أبى بكر بن سليمان بن القصيرة - أحد مشهورى الـكتاب وسترى ترجمته - وابن اللبانة من كبار شـعراء الأندلس ، وأبى محمد بن عبدون الشاعر الـكاتب صاحب قصيدة : الدهر يفجع بعد العين بالأثر ، وابن دريد الـكاتب وأبى جعفر بن سـعدون الـكاتب ، وأبى الحسن بن سراج ، وأبى خالد بن تستغير ، وأبى الطيب بن زرقون وأبى عبد الله بن خلصة الـكاتب ، وأبى عبد الرحمن بن طاهر ، وأبى عامر بن سرور وأبى الوليد بن حجاج . هكذا سرد مشيخته لسان الدين بن الخطيب

نشأ الفتح بن خاقان نشأة أدبية كما ترى ، ومن ثم غلب عليه الأدب حتى انصرف اليه عن كل ما عداه ولم يؤثر عنه من المعارف سواه ، قال ابن خاتمة : إنه لم يعرف من المعارف بغير الـكتابة ، والشعر ، والآداب (١) . أقول : وقلما ترى أديباً أندلسياً إلا وله مشاركة فى كثير من العلوم الدينية وغير الدينية . على أن قارئ الفتح بن خاقان يرى أنه واسع الاطلاع إلى أقصى حد ، وأنه أديب كل الأديب وأن معارفه العامة وثقافته الشاملة التى لا بد منها للأديب فى تلك العصور متوافرة . وإليك أقوال مترجميه : قال لسان الدين بن الخطيب : كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها ، لعوباً بأطراف الـكلام ، معجزاً فى باب الحلى والصفات . وقال فى موضع آخر : وشعره وسط ، وكتابته فائقة . وقال ابن سعيد فى المغرب : فخر أدباء أشبيلية بل الأندلس ذكره الحجارى فى المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده . طلع من الأفق الأشبيلى شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسـناؤها ، وكان فى الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ، إلى أن قال : وهو وأبو الحسن على بن بسام الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هـذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً

(١) قال صاحب القاموس يحصب كيضرب قلعة بالأندلس قال شارحه سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير . ثم ذكر ناسا ينسبون اليها منهم القاضى عياض صاحب الشفاء وهو الذى أقام حد السكر على الفتح كما سيمر بك

(١) هكذا جاء فى نفح الطيب ولعل ابن خاتمة يريد بقوله هذا أنه لم يؤثر عن الفتح إلا الكتابة والشعر وما هو منهما بسبيل

الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

المشـــكلة

للأديب أحمد الطاهر

لا فضل لى فيما أعرض من رأى فى هذه المشكلة التى عرضت فى « الرسالة » يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان ، بل الفضل لصاحبة « الجمال البائس » فيما أوحت به اليك من رأى فى رجولة الرجل

***

فاذا استوت للرجل رجولته فسبيل الحياة له يكون كما أراده الله أن يكون : خيراً ، ويسراً . أما ما يلقى الرجال فيه مما يسمونه بأسماء تضاد الخير واليسر فمرجعه فى أكثر الأحوال إلى أن الرجل لم تستو رجولته ولم تكمل . والنقص فى الرجولة زيادة فى الشقاء ، وإذا لقى الرجل فى سبيل الحياة نتوءاً يتعثر فيه ففى رجولته ثغرة قد قدت على قدر هذا النتوء

ونعود إلى صاحب المشكلة – وفقه الله – فنمتحن رجولته فنجدها ناقصة من بعض نواحيها ، سقيمة فى بعضها الآخر ؛ ولكن نقصها ليس مما يستعصى على الكمال ، وسقمها ليس مما يحمل على اليأس فى أى حال ، فمشكلته ليست عسيرة والحمد لله

شهد الفتى على نفسه فقال : « إن الرجل الجاثم فى عقله هو غروره – يومئذ – وكبرياؤه يقع فى الخطأ بعد الخطأ ، ويأتى الحماقة بعد الحماقة ؛ ونشأ صلب الرأى ، معتداً بنفسه ، إذا هم مضى ، وإذا مضى لا يلوى ، وما هو إلا أن يخطر له الخاطر فيركب رأسه . . . . »

اللهم غفراً ورحمة لهذا الفتى ! !

إنه قد عرف عيب نفسه ، ومن عرف عيبها وأصحر به فقد نهج السبيل إلى علاجها ، وإنه لواصل إلى غايته عاجلا أو آجلا ، لا ينقصه إلا أن يذيقها مرارة الحق لتشفى بعد أن استساغت حلاوة الباطل فسقمت

البلاء الذى لا يشبهه بلاء ، والسقم الذى لا يرجى منه شفاء ، هو أن يجهل الرجل عيب نفسه ، أو يعلمه علماً ناقصاً يلتمس فيه الأسباب والعلل المبررة

أما صاحبنا فكما نعلم من القصة : رجل فاضل مهذب ذو ميسرة ، وبيته بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة ؛ وبعض هذا فيما أرى كفيل بتيسير العلاج له برعاية الله التى لا تتخلى عن بيت فيه الدين . فان ضل واحد من أفراد هذا البيت ، ففى قلبه من أثر الدين الذى بسط سلطانه على البيت منذ نشأته بقية صالحة يكشف عنها غطاؤها فتقود هذا القلب إلى الخير فى عجلة أو وناء . فلندع رجل المشكلة الآن ولننظر إلى فتاتها

هذه الفتـاة التى سميت للفتى – سامحها الله – لمَ أغلقت الباب فى وجهه ؟ لم يذكر لنا عارض المشكلة سبباً صريحاً لهذه الفعلة ، على أن إدراك السبب ليس بعسير ، فلقد نستطيع أن ندركه « بالاستنتاج والمقارنة » ؛ فالفتاة الثانية التى عرفها صاحب المشكلة فأحبها لم تغلق فى وجهه الباب لأنها كانت فتاة جذابة « أمسكت باحدى يديها عنانه » فمضى قدما ، فاذا التفت إلى الوراء قرأ فى عينيها كلمات : « أتستطيع فراراً منى ؟ » فيقول : « لا » ويمضى . . . « ثم يلتصق بجسمها » فتسرى منها إلى قلبه رســـالة يقرؤها بقلبه المريض ، فاذا هى : « الدنيا كلها هنا » . . . . . .

هذا شأنها ، وما أحسب أن من ظالم الأحكام أن نصف الفتاة بان فى حياتها لينا ورخاوة ، ولذا لم تغلق فى وجهه الباب وهى لم تصبح زوجا له بعد . ولا أحسب أن الفتاة الأولى قد

فى الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المتولى على الرهان ، وإنما أخل به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بذم أولى الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن ماجه فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا . .

نرجىء القول على قتله ولماذا قتل ونمضى الكلام على منزلته الأدبيـة والمفاضلة بينه وبين معاصره وتوأمه أبى الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى

أغلقت الباب إلا لأن فى حياتها شدة واستمساكا

* * *

ألا فاعلم ياصاحب المشكلة ، أن حياء المرأة إذا أصيب باللين والرخاوة ثغر فيه الشيطان ثغرة يجلس على بابها ويصيح : « هلموا أيها الفتيان ! » وسرعان ما يستجيب الفتيان لصيحة الشيطان . واعلم وقاك الله أن هذه الفتاة التى فتحت لك الباب إن تزوجتها فستتزوج معها الشيطان الجاثم على ثغرة حيائها وسينضم الى شيطانك فتصبح بين ثلاثة : امرأة وشيطانين ! وأنت واحد ! وستكون بين أمرين احلاهما مر : إما أن يأتمر بك الشيطانان فيوسعا فى ثغرة حيائها حتى يدخل فيها غيرك من الفتيان . وإما أن تضيق أنت بما وسع الشيطانين أن يفعلا فتلجأ الى أبغض الحلال الى الله ـ الطلاق ! وأدعو لك مرة أخرى : وقاك الله . على أن الشيطانين إن أعياهما صبرك أو سعة فى حلمك دارا بوجهيهما الى المرأة فصوراك لها بصورة بشعة قبيحة ، وبذرا فى قلبها حبا مراً أسود ينبت فى القلوب المريضة فيثمر ثمراً مراً أسود يسمى البغضاء ويسمى الكراهية ويسمى المقت : ولا يزال هذا الثمر ينمو ويربو حتى ينضج ويستوى فلا يتسع له قلب المرأة فتحاول أن تجتثه من أصله فلا تستطيع ، فتعمد الى الزوج تحاول أن تجتثه ، فان أفلحت فذلك ما أرادت وتستريح ويشقى الرجل شقاء المحروم من أهله ، وإن لم تصبه أصابت شرفه ويشقى الرجل شقاء المثلوم فى عرضه ؛ أقبل أيها الرجل على تلك التى أغلقت الباب فى وجهك : ـ

أتدرى لم أغلقته ؟

لأنك لم تكن وحدك حين طرقت بابها ! لقد رأت معك شيطانك وما يتسع بابها لدخول إنسان وشيطان . لقد رأت معك الشيطان متمثلا فى « غرورك وشبابك وكبريائك وعنادك » فأشفقت عليك وعلى نفسها من ثالث يدخل بينكما . ولو أفسد الشيطان وأنتما لم تصبحا زوجين بعد فياللشقاء ويا للعار !

إنها أغلقت الباب فى وجهك وأنت خطيبها المسمى لها وأحكمت إغلاقه من الداخل حتى لا تستطيع أنت أن تدخل عليها ، فكان الأجدر برجولتك أن تحكم إغلاقه من الخارج حتى لا يستطيع غيرك أن يدخل اليها

حتى إذا حان موعد الزواج فضضتما الاغلاق فى وقت واحد وفى حضرة نفر من الأهل وذوى القربى ، وعسير على الشيطان يومئذ أن يندس بينكما

* * *

ما عليك أيها الرجل إلا أن تفتح قلبك لهذه المرأة الحيية الخفرة فتصل ما بينها وبينك ، وتغمض عينيك عن كل مايصوره لك غرورك ونزقك وكبرياؤك وصلفك ، ولن تلبث طويلا حتى ترى هذه الفتاة جندا من جنودك يحارب معك أعداء نفسك ويعالج معك أدواءها ، وستصلان الى الحب الزوجى النقى وفيه منك العطف والحنان ، وفيه منها الوفاء والاخلاص

ستجد فى هذا عناء ونصبا ، وسوف تتمثل لك الفتاة التى أحببت بين حين وآخر وأنا أدلك على ما يجب أن تعمل :

أنظر بعقلك الذى تبرأ منك حين صدت عنك الفتاة :

تلك الفتاة التى قد أحببت وضَمَّتْ جمالها ورقتها وفتنتها وذكاءها فى إناء ولم تحبسه عن الناس ولم تتخذ لصيانته سببا من الأسباب . وهذه الفتاة التى كرهت لقد وضعت عفتها ووفاءها وشرفها وحياءها فى إناء وأغلقت دونه الأبواب . فأيهما أبقى على الزمن ؟ وأيهما أخلص لك ؟ وأيهما لايعبث به نزق الفتيان ؟

وإن كان فى صدرك حرج مما لا تجد فى زوجتك الخفرة من جمال ورقة وفتنة وذكاء وما يتراءى لك فى الفتاة الجذابة فخذ واحدة مما زُيِّنَّ لك من صفاتها وضَمَّها الى جوار واحدة مما ترى من صفات زوجتك : خذ الجمال من تلك وضمه الى جوار الشرف من هذه : وانظر فى نصيبك من الاثنين :

ألست ترى جمال الجميلة ملكا لها تجود منه بما تشاء ومتى تشاء ولمن تشاء ؟ وشرف الشريفة لك ولزوجتك تنعمان بفضله مابقى ، وتستظلان بفيئه ما كان ؛ لايستأثر به واحد منكما وحده ، ولا يبخل بخيره أحدكما على الآخر ؟ ألا تجد الجمال متاعا تستهلكه أنوثة المرأة ، والشرف متاعا تستبقيه رجولة الرجل ؟

ثم خذ الذكاء من الحبيبة اليك وضمه الى جوار الحياء من البغيضة اليك وانظر الى حظك من الاثنين :

ألا تجد الذكاء سلاحا فى يد الأولى تحارب به كل الناس وزوجها : والحياء سلاحا فى يد الثانية تحارب به كل الناس إلا زوجها ؟

خذ الفتنة من تلك والوفاء من هذه

ألا ترى الفتانة تنادى بفتنتها : هلموا الى أيها الناس ، وترى الوفية تنادى بوفائها : هلم الىّ أيها الزوج ؟

* * *

وبعد ، فهاتان اثنتان احداها وقفت بالباب ، والأخرى أغلقت الباب

أما التى وقفت بالباب فانها تستقبل الدنيا وتستدبر الدار ، وأما التى أغلقت على نفسها الباب فانها تستقبل الدار وتستدبر الدنيا . والدنيا للناس جميعاً ، والدار لك وحدك

فانظر أيتهما الصالحة لك ، الجديرة بحبك ، الأمينة على بيتك ، الحفيظة على شرفك

سترى فى زوجتك عيوباً ونقصاً ، وستتجسم هذه العيوب ، لأنك تنظر اليها بغير عين الرضا ؛ وخير لك ألا تفكر فى هذه العيوب حين تبدو لك إلا بمقدار ما تحاول اصلاحها ، وأن تروض نفسك على اليقين بأن المرأة الكاملة لم تخلق بعد ، ولن تخلق بعد ، فلو خلقت الزوجة الكاملة خلُقاً وخلْقاً لتعطل فى الرجل كثير من صفات الرجولة ، ولما شعر الرجل بما مازه الله به على المرأة ، ولخرجت المرأة من انوثتها ، ولتزحزح الرجل عن رجولته ؛ ولما كان الرجال قوامين على النساء

* * *

ولا أجد فى الرد على ما تدعيه لنفسك من الحرية أبلغ مما أجابك به عمك حين قال : «إن كنت حرا كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها » ، وحين يسائلك : «ألا تكون حرا إلا فينا نحن وفى هدم أسرتنا ؟ »

وإن كنت تبيح لنفسك تحت ظل هذه الحرية أن تحب غير امرأتك لا لسبب إلا لأنك رأيت فتاة غيرها تفوق زوجتك جمالاً ورقة وعذوبة منطق ، فيم سينتهى بك هذا ؟

ألا تدرى أنك إن وثبت إلى الفتاة تراها فتعجبك فتتخذها زوجة دون زوجتك أو تضمها إليها فما زلت فى الدنيا وما زال فيها من هى أجمل وأذكى وأدعى للفتنة من تلك التى أعجبتك : أتثب إليها أيضاً وتتخذها زوجة ثالثة ، أم تطلق الاثنتين وتتزوج الثالثة ؟ ألا تعلم أن هذا لا ينتهى بك إلى نهاية ، ولا يقف بك عند غاية ، ولو أباح الناس جميعاً لأنفسهم هذه الفعلة لما قامت زوجية صالحة ، ولا نعم الأولاد بالحنان الممتزج من الأبوة والأمومة ، ولأفضى الحال بالناس إلى أن يتواثب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ولفسدت بذلك الأرض ؟

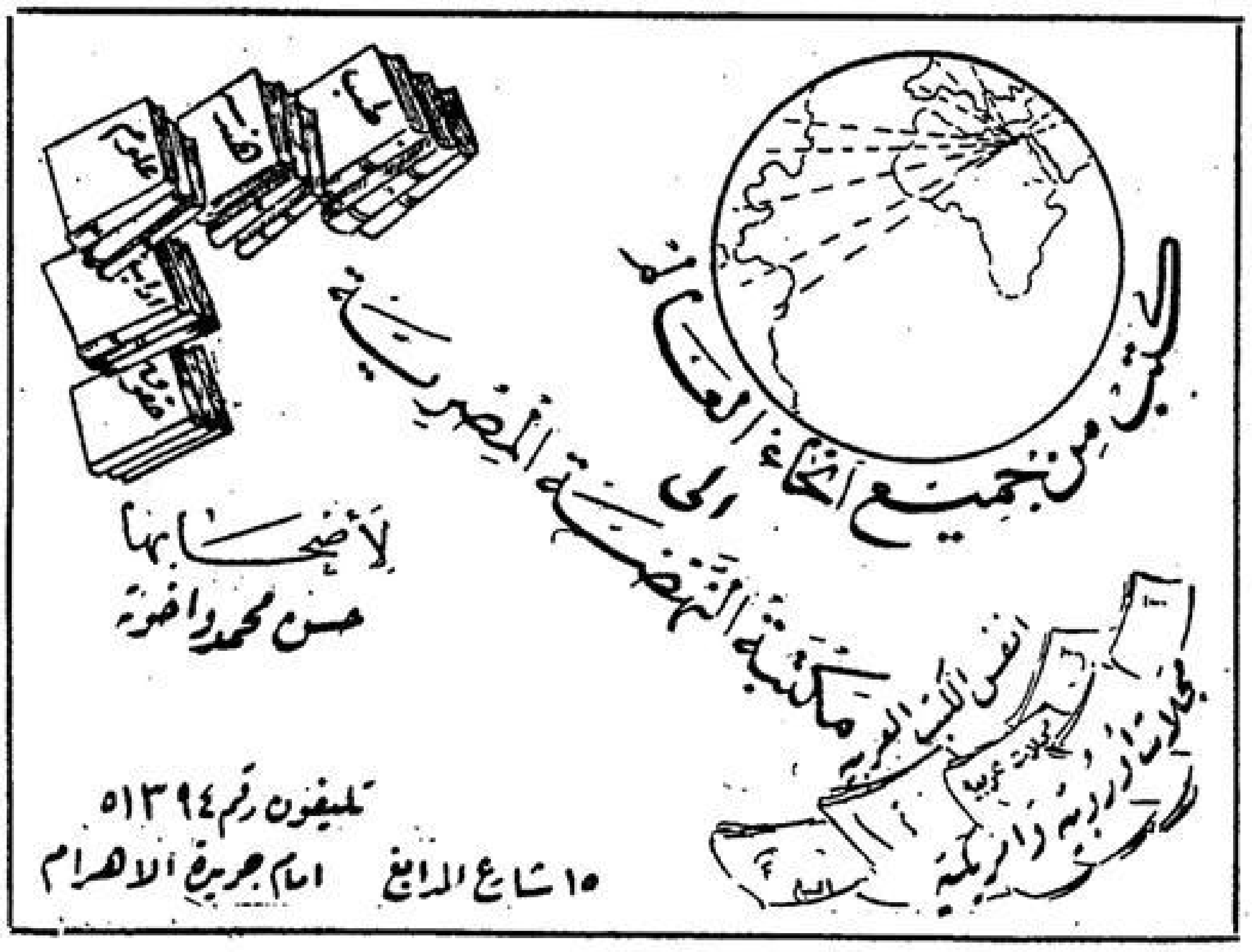
يا أخى : إن المتزوج الذى يشتهى جمالاً أكمل من جمال زوجته أو فضلاً لم يجده فى زوجته فيثب إليه إنما هو رجل قد أسقط مروءته وأهدر رجولته وظلم زوجته أشد الظلم ، وكفر بأنعم الله أشد الكفران ، ودبث شرفه بالصغار . وحسبك لتقدر هذا أن تزن الفعلة وزنها لو انعكس الوضع فأباحت الزوجة لنفسها مايبيح الرجل لنفسه ؛ لا تقل إن الله أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع دون المرأة ، فلذلك حكمة وقيود لا يسقط بها حق المرأة على الرجل وواجب الرجل قبل المرأة

ما أحسبك إلا فهمت هذا وأحسنت تقديره ، وأنت القائل لعمك إنك تقدر الرجولة والثواب والمروءة

* * *

اتق الله فى الزوجة ، وأشعر نفسك قوة الرجولة ، وانظر إلى ضعف الأنوثة ؛ وليكن لك على قلبك السلطان القوى ، وهىءْ بالعطف والحنان مهادا للحب الزوجى تجد أن زوجتك أحب الناس اليك ، وأقدرهم على اسعادك .

اليوزباشى
أحمد الطاهر



٣ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

والآن، فيم طول التفكير وبعد التقدير، وقد صار الأمر لعلى، واستقامت البيعة له فى الحجاز، وترامى سلطانه إلى العراق، وامتدت خلافته فشملت مصر، وأولئك هم ولاته تَرْدِي بهم الابل خفافاً إلى ولاياتهم، وهؤلاء صحابه وأنصاره يبعثون فى النفوس ظلالا من الخوف والرعب بعد الذى كان من قتلهم عثمان، وإن عمراً ليحس مطالع هذه الخلافة الجديدة فى شىء من الشك وقلة التقدير، وإنه ليجد انقباض نفسه عن طاعتها ورغبتها عن العمل فى ظلها ... بل إنه ليعمل الفكر ليجد من سلطانها مخرجا ومن طاعتها مهرباً ... ولله يستوى فى هذا مع أترابه من الصحابة والقادة... ولله كان يرجو أن يتصل ببعضهم ليستطلع فكره وليبادله الرأى ... وربما ود لو يتصل بعلى نفسه، إذن لأقنعه بالتخلى عن هذه الطوائف القلقة التى وصل حباله بحبالها، والتى تضر بقضيته كل الضرر ... فان فى هذه الطوائف لنفرا لا زال دم عثمان يجرى على أيديهم، وإن فيهم لأوشابا لا يليق بالخلافة أن تتصل بهم ويكونوا عدتها فى الفتح والجهاد، وإن فيهم لأحداثاً لا يستقيم بهم الأمر، ولا يحسن أن تكون بأيديهم أمور العباد؛ وماذا عسى ابن العاص أن يفعل مع هؤلاء وهو يرجو أن يكون سيداً لا مسوداً، وقائداً لا مقوداً، ثم هو يريد قبل ذلك «أن يشترط»، فما ينبغى لمثله أن يخطو دون أن يقدر للخطو موضعه ... أو يمضى دون أن يعلم أين يؤدى به السير، أو يعمل دون أن يقدر ربحه وخسارته من هذا العمل الذى هو مقبل عليه ... أليس هو القائل: «الكرار فى الحرب، وإننى الصبور على غير الدهر، لا أنام عن طلب؛ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة؛ ولعمرى لست بالوانى أو الضعيف، بل أنا مثل الحية الصماء، لا شفاء لمن عضته، ولا يرقد من لسبته، وإنى ما ضربت إلا فريت، ولا يخبو ما شببت ...»

أليس هو الفاتح النابغة، والسائس الذى لا يشق له غبار...

فما باله يبذل قياده طائعاً، ويقدم نفسه مختاراً ... كلا ... ولكن له فى الميدان الجديد شأن عظيم ... فما هؤلاء الذين يتولون الأمور إلا أترابه ولداته الذين لا يفضلونه فى ماض ولا فى حسب ولا مقام ... والذين لا يساوونه فى مكر ولا سياسة ولا تدبير ... ففيم يكون ذنباً والرؤوس لا تزيد عليه شيئاً؟ وفيم يؤمر وهو من طبيعة الآمرين؟ .. ولو أن علياً بعث اليه يستعين برأيه ويستنير بفكره؛ إذن لقام إلى جانبه وأخلص له المودة، وأفاده الفائدة العظيمة، فانه «شيخ يضر وينفع» كما يقولون فى بعض ما يدس عليه من الشعر؛ ولكن علياً منصرف عنه لا يكاد يذكره، وهذه شهور تنطوى على خلافته وهو مستقل بنفسه وأصحابه، ما يلقى إلى أحد من الصحابة بالاً ... بل ها هو ذا يؤدب العصاة منهم وينهض لهم بالسيف ... وهذه الأخبار تترامى عن الهزيمة النكراء التى منيت بها عائشة، والقتلة القاسية التى صار اليها الصحابيان طلحة والزبير ... وماذا بعد؟ .... أغلب الظن أن دوره مقبل ولا ريب، وأنه مخير بين الطاعة أو الحرب عن قريب فماذا تراه فاعلا؟ ... هنا كان الرجل يحس قلقاً شديداً ... فيقلب فكره ويتأمل حاله، علّه ينتهى إلى رأى يستقر اليه ... ثم خطر بباله فسأل نفسه: ومعاوية؟ ... كيف ترى حال معاوية ... أغلب الظن أن ابن أبى طالب لن يعفيه، وهو وال على الشام وما حواليه ... وإنه لمرسل اليه بالطاعة أو عازله ... ثم بدا له خاطر جديد فابتسم ... وهم من مجلسه ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ... إنه يفكر فى معاوية ... ويحسب الأمر حساباً دقيقاً؛ إن لمعاوية جندا كثيفاً، ونفرا أقوياء ... وإنه لفى منعة بأهل الشام ومال الشام ... ومن يعرف فضل جند الشام كعمرو الفاتح المجرب الخبير؟ إن فيهم لخيراً، وإن عليهم لمعتمدا ... وإنهم ليفضلون جند العراق وجند الجزيرة ... وإنهم ليثبتون فى الحرب ثباتاً عظيما ... فلم لا يعتمد عليهم ويستفيد منهم؟ ولم لا تكون جبهة قوية من جند الشام وقدرة معاوية وحيلة عمرو ... فما عسى أن يفعل جند العراق وشجاعة على وتهور أنصاره أمام هؤلاء ... فاذا فرغ من ذلك الحساب والتقدير فقد هم يريد ليذهب لمعاوية ليرى رأيه فى ذلك الأمر، وإنه لكذلك إذا طارق قد أقبل، وإذا به رسول من معاوية! ... يحمل إلى عمرو

كتاباً ... ويبتسم ابن العاص ، فقد فهم ما فى الكتاب ؛ وما يقصر مثله عن ذلك وقد قدر الأمر كله كما رأينا ... ثم يتناول الكتاب ، فاذا به يقول : «أما بعد فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم علىّ جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى ، فأقدم على بركة الله تعالى[1] »

الآن يستطيع ابن العاص أن يمضى عن ثقة ، فقد عرف ابن أبى سفيان قدره واستنجد به ، وفى استطاعته الآن « أن يشترط » ، وأن يطلب ما يريد من أجر وجزاء ... وهل هو يرجو إلا مصر وخيرها وأمنها ... وهل هو واجد فى مناصب الدولة منصباً هو آمن أو أحسن من ولاية مصر الفياضة بالخير والبركات ... بلى وإنها لأجدى على صاحبها من الخلافة نفسها ... فما يغنم الخليفة إلا التعب والجهد فى غير طائل ... وما جزاؤه من ملكه الواسع إلا أن يتوسد الغبراء ، فاذا رق ومال إلى الدنيا كان نصيبه القتل دون رحمة ولا غفران . ثم أى مكان هو أعز من هذا الركن الأمين الذى لا يصله الجند إلا بمشقة ، ولا يقصر فى أمر يطلبه الخلفاء ... الخير الخير إذن فى المبادرة إلى جانب معاوية والانضمام لرايته ، والحزم الحزم فى الاسراع اليه والوقوف فى صفه فما فى هذا خطر ولا خوف ... ولزود نفسه من رأيه باستشارة ابنيه محمد وعبد الله ... فقد عود نفسه أن يدقق الحساب جدا ... وألا يترك ناحية من نواحى الرأى ولا مذهبا من مذاهب الفكر إلا بحثه ووزنه وزناً دقيقاً ؛ وهاهو ذا يستمع إلى ابنه عبد الله ... إنه ليلومه فى ذلك لوماً شديداً ، ويرده عن هذا الجشع الذى تحدثه نفسه به : « أيها الشيخ ، إن رسول الله قد ذهب وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان ، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية » ... وإن محمدا ليسخر من أخيه ، ويريد لأبيه مكاناً ممتازاً فى عالم السياسة العربية ، ويقول : « بادر الى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً ... »

بلى لقد قال محمد الصدق ، ومس شغاف قلب أبيه . . وماذا أحب الى ابن العاص من أن يكون رأسا فى كل خطوة يقوم بها وألا يأتمر برأى أحد وأن يكون حراً ، فلا تؤذنه مضايقة مثل عمرو ، وإن معاوية لقادره قدره ورافعه فى درجات الرياسة والامارة ، ولا يعدم ابن العاص بفكره أن يتسلط بعد ذلك فيكون صاحب الرأى فى الجماعة دون معاوية . . وما عسى تفعل « الحية فى أصل الشجرة » إلا ذاك . . نعم وليمض على بركة الله

* * *

وكان معاوية فى حيرة من أمره لا يدرى ما يفعل ؛ كان رأيه قد استقر على حرب على ، ولكنه لم يدر كيف يمضى الى ذلك ، وقد بدأت دعوة على تتسرب الى الشام ، وأنشأ المسلمون يتحدثون فى سر سكوت معاوية عن طاعة الخليفة الجديد ، وكان هو نفسه يسكتهم ويهدئهم بما له من المكانة فى نفوسهم والقدر فى أعينهم ، ولكنه كان يحس أن لذلك آخرا وأنهم منفضون من حوله إن لم ينته فى هذا الموقف الى رأى ، وهل هو إلا وال من الولاة عليه أن يطيع ، وقد وصلت دعوة على وتحدث بها البعض ومال اليها البعض الآخر ، وبدأ القلق يساور معاوية ، وانتهى به الأمر الى الاستنجاد بابن العاص ، وكان يعرف فيه ميلا عن بنى هاشم وكرها لهم ، وكان يقدر أنه لا بد كاره لأمر على ، فبعث اليه يتعجل حضوره نخف اليه كما رأينا . . وجلس الرجلان يتبادلان الرأى ، وربما أحس عمرو من حديث معاوية أنه أخطأ فى هذه المغامرة التى أقدم عليها ، وأن هذه « الصفقة الجديدة » ربما كان فيها بعض الخطر . . ورأى أن ما كان قدره من الاعتماد على جند الشام كان فيه كثير من الوهم وسوء التقدير . . وكيف يمكن إقناع هؤلاء بمناهضة الخليفة وحربه وهم مسلمون مؤمنون يرون طاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضا واجبا ؟ وكيف يمكن التعويل عليهم ، وهذه طاعة على تكاد تبدو على ألسنتهم ؟ ولكنه اطمأن الى أن لا خطر على مركزه فى هذا الأمر الذى انضم اليه . . فانما هو صاحب الرأى المسموع والكلمة النافذة . . وهاهوذا يستطيع أن يشترط « أخذ مصر كلها أو مصر ومعها غيرها » . وقد تقدم فما ينبغى له أن يتأخر . . وقد ألقى يده فى يد معاوية ولن يخلص له على بعد ذلك أبدا

ثم إنه مضى يفكر فى الأمر تفكيرا طويلا ، وقلبه على وجوهه .. حتى هداه الرأى الى حيلة ربما أفلحت فى إقناع جند الشام بعدالة قضية معاوية .. فان هؤلاء الناس لا بد أن يكون قد

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥

ساءهم مقتل عثمان ، ولا بد أن يكونوا ساخطين على قتلته راغبين في الثأر والاقتصاص منهم ؟ وقد ترامى الى سمع ابن العاص أن عليا يأوى هؤلاء المجرمين ويعد لهم في نعمته ويضعهم من حزبه موضع القادة والرؤساء .. فلم لا يقال للشاميين إن معاوية يقبض يده عن على لأن عليا يمين قتلة عثمان ويدعهم أحرارا طلقاء ، بل لم لا يقال لهم إن مقتل عثمان قد صادف من نفس على موقعا طيبا ؟ . . بل لم لا يقال لهم إن عليا نفسه عمل على هذا القتل وعاون عليه لكي يصير الأمر اليه أخيرا ؟ .. ولم لا تلتمس البراهين على ذلك ، وقد كان على في المدينة ساعة قتل عثمان ، وكان في ميسوره أن يمضي لنجدته فلم يمض ... وكان الأمر لا يكلفه إلا مشية من داره الى دار عثمان فتتفرق الجموع ويرتد الناس ... بلى ... ولم لا يؤثر على عواطفهم بتصوير عثمان عطشان يجهده العطش ... وعلى في داره ريّ مسرور ... بلى ... وهذا ابن أبي بكر قاتل عثمان بيده مكرم من على ، أثير عنده ، مقام على مصر واليا ... بلى ، والحق أبلج لا تنقصه البينة ولا يعوزه البرهان !

للبحث بقية حسين مؤنس

في الأدب الانجليزى

٦ ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيرى حماد

تتمـة البحث

فلسفة الدينية :

إن من الصعب علينا أن نرجع إحدى رواياته العديدة إلى أصل ديني صريح ، ولكن هناك عدداً غير قليل من العقائد الدينية أودعها شكسبير ثنايا شعره ومؤلفاته ، وتختلف هذه العقائد باختلاف الروايات التي ورد ذكرها فيها

ففي رواية الملك هنرى الخامس نرى فكرتين دينيتين أودعهما الشاعر في روايته . وأولى هذه العقائد هي عقيدته في أصل خطأ الانسان ، وثانيتهما هي عقيدته في المعمودية . أما خطأ الانسان فكان منشؤه تلك الخطيئة العظيمة التي اقترفها آدم أبو البشر . اجترم ذلك الجرم فتلوثت نفسه بتلك الخطيئة وكان جديراً بعد ذلك أن تتطهر نفسه مما لحق بها من الأدران ، فأرسل الله اليه أحد الملائكة وأخرج منه تلك الروح الطائشة ووضع بدلاً منها روحاً طاهرة نقيـة ، وما اقتراف الناس للآثام إلا سير على السنن الذي اختطه والدهم من قبل واحتذاء لحذوه

وهناك عقيدة ثالثة أدرجها شكسبير في رواية هملت ، فهو يعتقد أن الدعاء والابتهال إلى الله لا يصل إلى السماء إلا إذا كان صادراً عن نفس طاهرة وقلب صادق الاخلاص ، وهذه حقيقة دينية تثبت أن شكسبير كان رجلاً ورعاً تقياً يؤمن بصدق النية وخلوصها من الرياء والنفاق

نظر شكسبير إلى هذا العالم الملىء بالشرور والموبقات نظرة احتقار وازدراء فكان دائم التوق إلى الخلاص منها والانتقال إلى حياة أروع منها وأطهر ، وقد ذكر عقيدته هذه على لسان بطله هملت الذى كان يقصد الترفع عن الأمور التافهة الشريرة والسمو بنفسه في عالم أرق ، عالم ملؤه التقى والصلاح والسعى إلى ما فيه خير الناس

وفي رواية الملك يوحنا نرى شكا في عالم آخر يلاقي الناس فيه أبناءهم وأصدقاءهم ، ذلكم هو يوم البعث والحساب ، وشكه هذا يظهر على لسان الأميرة كنستانس عندما تخاطب الكردينال قائلة : « إن كان حقاً ما تقول عن وجود حياة أخرى نجتمع فيها بأصدقائنا فانى لا شك واجدة ولدى الذى فقدته في المهد صبياً »

أما اعتقاد شكسبير في وجود الآلهه فكان عقيدة ثابتة لا شك فيها ولا مراء . فهو دائماً يذكر الآلهه في عدد من رواياته وعند ما يقصد إظهار أمر عظيم يقسم بالآلهه الأعظم الذى تطأطئ له جباه البشر ؛ فهو يقول على لسان بانكو : « إنى لأقسم أمام الآلهه القدير أن أحارب جميع المكائد التى يقصد منها خراب الأمة والبلاد »

وفي رواية روميو وجوليت تظهر لنا عقيدته في المعمودية ، فالانسان إذا اقترف أمراً منكراً وجب عليه أن يتعمد مرة أخرى فيصبح كأنه حديث النشأة والولادة ويتخلص بواسطة ذلك مما لحقه من ذنوب ومعاص

وأهم هذه العقائد الدينية الكثيرة التي ضمّنها شكسبير رواياته عقيدتان : أولاهما حق الملوك الآلهي ، وثانيتهما عقيدة تناسخ الأرواح ؛ وقد ذكرت العقيدة الأولى في موضعين من روايات شكسبير : أحدهما في رواية الملك ريشارد الثاني عند ما يهتف الملك قائلاً : « إن جميع مياه المحيطات لعاجزة عن أن تمحو الزيت المقدس عن الملك المنصب من قبل الآلهة » (١) . والآخر في رواية مكبث عند ما يتقدم الطبيب إلى مالكولم Malcolm بقوله واصفاً الملك القديس : « ولمسة من يده التي وضع فيها الآله قدسية وطهارة لم يضعهما في غيره كانت كافية لأن تشفي المرضى والمصابين » (٢)

من هاتين الفقرتين يتبين أن شكسبير كان يؤمن بحق الملوك الآلهي ، وأنهم نفر من الناس اختارهم الله لأدارة شعوبه ، فعليهم طاعتهم وتنفيذ أوامرهم . وليس من العجيب أن يعتقد هذا الاعتقاد وقد وجد في عصر سادت فيه هذه العقيدة وآمن بها الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ، ولم تكن لأفكار الحرة قد انتشرت بعد ، بل كان الناس يفضلون كل ما هو قديم موجود

وأما العقيدة الثانية كما ذكرنا فهي عقيدة تناسخ الأرواح ، وهذه تؤلف قسما من النظرية المعروفة لدينا بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال بعض الأرواح من أجسادها إلى أجساد أخرى ، فروح الرجل التقي الورع تنتقل إلى جسد كريم تحل فيه وتتخذ منه مكاناً لاقامتها ، وأما روح الرجل الشرير فتحل في جسد أحد الحيوانات الشريرة ؛ وقد ذكر شكسبير هذه العقيدة في (الليلة الثانية عشرة Tweifth Night) وفي تاجر البندقية ، وفي كل من هذين الموضعين ينظر شكسبير الى هذه العقيدة نظرة استخفاف وازدراء ، فهو يقول على لسان كراشيانو في الرواية الثانية : « إنك لتجعل من عقيدتي موضعاً دائماً للشك فيسهل علي حينئذ الاعتقاد بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال أرواح الحيوانات إلى أجساد البشر » (٣)

وفي رواية « الليلة الثانية عشرة » نرى حواراً بين المهرج وبين مالفوليو . واليك نصه :

المهرج : « ما هي نظرية فيثاغورس ؟ »

مالفوليو : « إنها تعني انتقال روح جدتي الى جسد أحد الطيور »

المهرج : « ماذا تعتقد في هذه الفكرة ؟ »

مالفوليو : « إني لأنزّه الروح أن تنزل إلى هذا المستوى ، ولذلك فاني أعتقد بأنها نظرية خاطئة »

المهرج : « وداعاً يا صاح ! لتبق على جهلك ، وستعتقد بهذه النظرية قبل أن أعيد اليك عقلك ، وعندئذ ستتردد في ذبح أحد الطيور مخافة أن تحل روحه محل روح جدتك » (١)

من هذا الحوار يتبين أن شكسبير كان يستهزيء بهذه العقيدة وينظر اليها نظرة احتقار وازدراء ؛ فعقائده الدينية لا تسمح له بهذا التفكير ، ولذلك كان جديراً به أن يوليها ظهره وألا يهتم بها اهتماماً جدياً

وقبل أن أختم هذا البحث في فلسفة شكسبير الدينية أورد ما قاله جبسن عنه : « إن الاحترام الزائد الذي أبداه شكسبير في رواياته نحو الديانة المسيحية الأساسية لتجعلنا أميل الى الاعتقاد في نصرانيته لولا عدم وجود أحد الأدلة لتثبت لنا أنه كان مسيحياً صادقاً » (٢) ولكنه لم يكن يوماً ما معتقداً بجميع الاعتقادات التي آمن بها أهل عصره . نعم لقد عاش مسيحياً ومات مسيحياً ، ولكنه أظهر في بعض الأمور شكا وتساؤلاً عن صحتها وصدقها . نعم كان شديد الاحترام للكنيسة وعقائدها ولكنه خالفها في كثير من المواضع

خاتمة :

لو تتبعنا نظريات شكسبير في الأمور الغيبية التي ذكرناها سابقاً لرأينا الاهتمام الزائد الذي أبداه نحوها ، نعم عاش في عصر سادت فيه الخرافات والأوهام ، ولكنه تطلع بعين ثاقبة فرأى أشياء كثيرة يعجز الرجل العادي عن رؤيتها . كانت له القدرة الكافية على تفهم الأشياء الغيبية ففهمها بطريقة تخالف الطريقة التي فهمها الغير

(1) Richard II . Act III . 2 . 54
(2) Macheth ; IV . 3 . 141
(3) Merchant of Venice IV 1 .30

(1) Tweifth Night IV . 2 . 54
(2) Gibson . Sh's Use of The Subernatural P. 47

ولم تكن العقائد الشائعة المصدر الوحيد الذي اعتمده شاعرنا في أبحاثه عن المغيبات ، بل كانت هناك مصادر أخرى من الفلسفة الرومانية والأغريقية القديمة مضافاً اليها الابتكار الذي أوجده شكسبير دون أن ينقل عن غيره . سمع بأذنه ما يدور بين الناس من هواجس وأوهام فجمعها في شعره إلى ما نقله عن مخلفات السلف وأخرج منها روائع تعد من أعظم مبتكرات الأدب ، وأخص بالذكر منها رواية (حلم منتصف ليلة من ليالي الصيف)

وأما الشبح في رواية هملت فيحوي نوعين من الأشباح أحدهما كان من ابتكار الشاعر العبقري والآخر مما نقله عن سابقيه من الكتاب الذين رووا حادثة الأمير هملت بشكل قصصي

وأما ساحرات مكبث فقد اقتبسها شكسبير عن هولنشد Holinshed ويتبين لنا هذا مما قال في هو لنشد : « بينما كان مكبث راجعاً إلى العاصمة إذا به يصادف ثلاثاً من النسوة وقد ازتدين ألبسة تشبه ما كان يرتديه النساء في ذلك العصر » ؛ وأما شبح بانكو فهو ابتكار ابتدعه الشاعر المظيم ؛ وأما رواية العاصفة فيغلب على الظن أنها الأولى من نوعها ، وذلك لعدم وجود من كتب في موضوعها من الشعراء والكتاب الذين دونت كتبهم في السجلات وكتب القصص والتاريخ

تقع حياة شكسبير بالنسبة إلى بحثه في المغيبات في أربعة أطوار : الطور الأول منها هو طور ظهور روايته (حلم في منتصف ليلة من ليالي الصيف) فاستعماله للجنيات مبتكر ومحدث . . وهو سلس في كتابته بعيد كل البعد عما يرهق الذاكرة وعقل القارىء . وقد وصف كلارك كتابه هذا بقوله : « إن استعمال شكسبير المغيبات لأول مرة لما يدل على سروره ومرحه : فكل روايته هذه ملأى بالبهجة والحبور ، ويندر أن تجد هنالك ما يكدرك إلا ما يقع في الأسطر القليلة التي بحثت في الأشباح »

وأما الطور الثاني من أطوار تأليفه فهو الدور الذي ظهرت فيه روايته الثانية هملت ؛ وفي هذه الرواية التمثيلية نشعر بالأرواح والأشباح تتصل ببني البشر اتصالاً لا يكاد يكون تاماً ، فان هذه القوى الخفية لا تستطيع أن تؤثر في مجرى حياة الانسان وتحوله في الجهة التي تريدها ، ولا يقوم الشبح في هذه الرواية بأي عمل من الأعمال إلا إذا كان بطريق وسيطه ؛ وكان شكسبير في هذا الطور قد بلغ الثلاثين من سنه وبدأت نظرته في الحياة تتحول من تفاؤل إلى تشاؤم ، وأخذت الأفكار والظنون تنتابه فتجعل منه عرضة دائمة للتفكير والتخيل ، فاعتقد أن وراء الانسان قدرا يسيره حسبما يريد ، وما الانسان إلا فريسة لهذا القدر الغاشم

والطور الثالث ينتهي باخراج رواية مكبث . ازدادت قوة هذه المخلوقات المغيبة ولكنها عاجزة عن إيقاع الضرر بالناس مباشرة ودون أية واسطة ، ولم تكن كلمات الساحرات في الحقيقة إلا صدى يردد ما كان يدور في خلد بطل الرواية ، وكان شكسبير يشعر بالشرور والموبقات تحيط به من كل جانب فأظلمت أفكاره وتناوبته الهواجس المختلفة ، وأصبح في خوف مستمر من هذه القوى الخفية التي تقوم بأعمالها تحت ستار من الظلام والخفاء . وهنا يصل إعانه بالخرافات إلى القمة ويصبح شكسبير مؤمنا مصدقاً لكل ما يقال له عن هذه الأمور المخيفة المرعبة

وفي الطور الرابع أو الأخير نراه يخرج للناس رواية العاصفة وفيها يسترد رباطة جأشه وقوة عقيدته فيرجع إلى أفكاره المرحة الطلقة مرة ثانية . فما الأرواح والقوى الخفية إلا عبيد يستخدمها الانسان في مهامه وأغراضه ، وليس لها من القوة والسلطة عليه شيء ؛ وفي هذه السنوات الأخيرة يصل خياله الابتداعي إلى أقصى غايته . فيشعر بحقيقة الوجود وطبيعة الأمور دون أي ستار أو غطاء

وقد تخلص شكسبير من هواجسه ومخاوفه وعاد مرة ثانية إلى مرحه وسروره الذي أظهره في صورته التي صورها للجنيات فانطلقت مخيلته في الفضاء مجتازة جميع العوائق من عقائد وأفكار رجمية . وسجلت في روايته الأخيرة نتيجة عبقريته ونبوغه

وفي كل من هذه الأطوار الأربعة رأينا شكسبير يتخذ مواضيعه مما كان يدور في خلده من المسائل والمشاغل العقلية ، فهو مفكر واسع التفكير ، مصور حسن التصوير ، وشاعر خصب الخيال ؛ تجلى تفكيره في كل هذه الأمور العقلية التي بحثها ، وظهر تصويره في هذه الرسوم الرائعة التي رسمها لمخلوقات خيالية بأبدع تكوين وأحسن تصوير

نابلس — فلسطين **فيزي همام**

١٤ ـ شاعرنا العــــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تتمـــــة

محاسنه ومآخذه : إذا كان لأبى العتاهية ذلك الفضل فى الشعر العربى بطريقته الجديدة التى أحدثها فيه ، وتوخيه فيه السهولة التى تجعله قريب النفع ، وتجعل منه أداة صالحة لتقويم الشعب ، فانه كان أحياناً يفرط فى هذه السهولة ، فينزل فيها إلى اللغة الدارجة ، والواجب أن يتوسط فى ذلك ويسلك فى الشعر لغة بين هذه اللغة ولغته القديمة الجافة ؛ ومما يؤخذ عليه من ذلك قوله :

ألا يا عُتْبَةُ الساعَهْ أموتُ الساعَةَ الساعَهْ

وقد قيل لأبى بَرْزَةَ الأعرابى أحد بنى قيس بن ثعلبة : أيعجبك هذا الشعر ؟ فقال : لا والله ما يعجبنى ، ولـكن يعجبنى قول الآخر :

جاء شقيقٌ عارضـا رُمحَهُ إن بنى عمك فيهم رماحْ
هل أحدَثَ الدهرُ لنا نكبةً أم هل رَقَتْ أمُّ شقيق سلاح

أى نفثت فيه حتى لا يعمل شيئاً . ولا يفوتنا أن نأخذ على هذا الأعرابى أن هذا الشعر لا يصح أن يذكر مع ذلك الشعر ، ولـكن يجب أن يذكر معه غزل من نوعه ، وفى معنى يمت بسبب إلى معناه ، لتكون الموازنة صحيحة بينهما ، وتظهر الفروق بين الشعرين تمام الظهور

وقال اسحاق بن ابراهيم الموصلى ، وكان ممن ينكر على أبى العتاهية : أنكر الرشيد على طعنى على أبى العتاهية فى شعره ، فقلت يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس ، ولـكن ربما تخرف ، أى شىء من الشعر قوله :

هُوَ اللهُ هُوَ اللهُ ولَكِن يغفر اللهُ .

وقال أبو عبيد الله المرزبانى : ومما أنكر على أبى العتاهية من سفساف شعره قوله فى عتبة :

ولَّهَتنى حبُّها وصـيرنى مثل جُحى شهرة ومشخلَبَهْ

وقوله :

يا وَاهَـا لذكر الله يا وَاهَـا ويا وَاهَـا
لقد طَيَّبَ ذكر الله بالتسبيح أفواها
أرى قوماً يتيهونَ حُشوشاً رزقوا جاها
فما أنْتنَ من حُش على حُش إذا تاها

وقال على بن أبى المنذر العروضى : لما مات سعيد بن وهب الشاعر حضر أبى جنازته ، وحضرها الفضل بن الربيع ، وكان قد ظهر أيام المأمون ، فلما دفن أثنى عليه الفضل ، وأقبل على أبى العتاهية يحدثه أنه أودع القضاة والعدول أموالا فما وفوا له ، وأنه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به ، فقال أبى لأبى العتاهية : ألا ترثيه ؟ قال : بلى ، قال أبى : ثم صرت بعد أيام إلى الفضل ابن الربيع فأخرج إلىّ رقعة ، فقال : اقرأ مرثيـة أبى العتاهية لسعيد بن وهب ، فاذا فيها :

مات والله سـعيدُ بن وهب رحم الله سـعيدَ بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عينى يا أبا عثمان أوجعت قلبى

فقلت ما أدرى ما أقول ؟ فقال الفضل : أبو العتاهية بأن يرثى فى حياته أولى من سعيد بعد موته ، قال الصولى : وله شبيه بهذا فى محمد بن يزيد المسلمى :

قد مات خِلى وأنسى محمـد بن يَزيدِ
ما الموتُ والله منـا خلافـه ببعيـــد

قال أبو عبيد الله المرزبانى : وقوله فى مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله فى سعيد بن وهب مما ذكره الصولى وهو :

بكت عينى على عيسى بن جعفر عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر

ويمكن أن يعتـذر عن هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله أبو العتاهية فى حديثه السائر ولا يريد به الشعر ، وقد روى أبو الفرج رثاءه لسعيد بن وهب بطريق آخر فقال : أخبرنى على بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد ، قال : حدثت عن بعض أصحاب أبى العتاهية ، قال : جاء رجل إلى أبى العتاهيـة ونحن عنده فساره فى شىء فبكى أبو العتاهية ، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا اسحاق فأبكاك ؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً :

قال لى مات سعيد بن وهب رحم الله سـعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عينى يا أبا عثمان أوجعت قلبى

قال فعجبنا من طبعه ، وأنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً ؛ وإنا نرجح هذه الرواية بورودها عمن شاهد هذا الشعر حين يقال وعاينه بنفسه ، ولعل الفضل غير فيه هذا التغيير ، ثم رواه بذلك الشكل ليزرى به على أبى العتاهية بعد أن فسد ما بينهما على ما ذكرنا

ومما أنكر على أبى العتاهية قوله :

حلاوةُ عيشك ممزوجةٌ   فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها ، والعبارة غير مرضية ، لأنا لم نر أحدا أكل شهدا بسم ، وأجود من قوله لفظاً ، وأصح معنى ، قول ابن الرومى :

وهل خُلةٌ معسولة الطعم تجتنى
من البيض إلا حيثُ واشٍ يكيدُها
مع الواصل الواشى وهل تجتنى يدٌ
جنى النحل إلا حيثُ نحلٌ يذودُها

وأنكر عليه أيضا قوله :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما   والله لو كُلِّفتَ منه كما
كلفتُ من حبِّ رخيم لما   لمتَ على الحب فذرنى وما
ألقى فإنى لستُ أدرى بما   بُليتُ إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما   أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبى غزالٌ بسهام فما   أخطا بها قلبى ولكنما
سهماه عيناه له كلما   أراد قتلى بهما سلما

فإنه من الشعر المضمن ، والتضمين عندهم عيب شديد فى الشعر ، وخير الشعر عندهم ما قام بنفسه ، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض ، مثل قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه   على شعث أىُّ الرجال المهذبُ

فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه ، إن قال « أى الرجال المهذب » كفاه ، وإن قال « ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث » كفاه ، وقد سبق أنى لا أرى رأيهم فى عيب هذا التضمين ، ولست أدرى لماذا لا نجيز فى الأسلوب القصصى هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة ، فيكون لنا من تماسكها وحدة شعرية ملائمة لوحدة قصتها ، كما يكون لنا فى الحكم ونحوها أبيات مستقلة ، فيها يقوم كل بيت منها حكمة قائمة برأسها

أما محاسنه وعيون شعره فنذكر منها ما أثر عنهم ، واستحق به التقديم عندهم ، قال موسى بن صالح الشهرزورى : أتيت سلما الخاسر فقلت له أنشدنى لنفسك ، قال لا ولكن أنشدك لأشعر الجن والانس ، لأبى العتاهية ، ثم أنشدنى قوله :

سكنٌ يبقى له سكنُ   ما بهذا يؤذن الزمنُ
نحن فى دار يخبرنا   ببلاها ناطق لسِنُ
فى سبيل الله أنفسنا   كلنا بالموت مرتهنُ
كلُّ نفس عند ميتتها   حظُّها من مالها الكفن
إن مالَ المرء ليس له   منه إلا ذكرُهُ الحسن

وقال بشار لأبى العتاهية : أنا والله أستحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول :

كم من صديق لى أسا   رقه البكاءَ من الحياء
فإذا تأمل لامنى   فأقول مابى من بكاء
لكن ذهبتُ لأرتدى   فطرفتُ عينى بالرداء

فقال له أبو العتاهية : لا والله يا أبا معاذ مالذت إلا بمعناك ولا اجتنيت إلا من غرسك حيث تقول :

شكوت الى الغوانى ما ألاقى   وقلت لهن ما يومى بعيدُ
فقلن بكيتَ قلتُ لهن كلا   وقد يبكى من الشوق الجليدُ
ولكنى أصاب سوادَ عينى   عُوَيْدٌ قذى له طرفٌ حديد
فقلن فما لدمعهما سواء   أكلتا مقلتيك أصاب عود

وقال أبو سلمة الباذغيسى : قلت لأبى العتاهية فى أى شعر أنت أشعر ؟ قال قولى :

الناسُ فى غفلاتهم   ورحا المنية تطحنُ

وقال الفضل بن الربيع لأبى العتاهية : يا أبا إسحاق ما أحسن بيتين لك وأصدقهما ! قال وما هما ؟ قال قولك :

ما الناس إلا للكثير المال أو   لمسلط ما دام فى سلطانه
فإذا الزمان رماهما ببلية   كان الثقات هناك من أعوانه

وقال عبد الله بن الحسن بن سهل الكاتب : قلت لأبى العتاهية أنشدنى من شعرك ما يستحسن فأنشدنى :

ما أسرع الأيام فى الشهر   وأسرع الأشهر فى العمر
ليس لمن ليست له حيلة   موجودة خير من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا   واجر مع الدهر كما يجرى
من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها آخر الدهر

وقال أبو تمام الطائى : لأبى العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهى قوله :

الناسُ فى غَفَلاتِهمْ ... ورحا المنيـة تطحنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغنى يُخشَى عليه من الفقر

وقوله فى موسى الهادى :

ولما استَقَلوا بأثقالهمْ ... وقد أزمعوا الذى أزمعوا
قرنتُ التفاتى بآثارهم ... وأتبعتهم مُقْـلةً تدمع

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عَفْواً ... أليس مصير ذاك الى زَوَال

وقال العتبى : رؤى مروان بن أبى حفصة واقفا بباب الجسر كئيباً آسفا ينكت بسوطه فى معرفة دابته ، فقيل له يا أبا السمط ما الذى تراه بك ؟ قال أخبركم بالعجب : مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتى من خطامها الى خفها ، ووصفت الفيافى من اليمامة الى بابه أرضا أرضا ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر ، جاء ابن بياعة النخاخير – يعنى أبا العتاهية – فأنشده بيتين فضعضع بهما شعرى ، وسواه فى الجائزة بى ، فقيل وما البيتان ؟ فأنشد :

إنّ المطايا تشتكيك لأنها ... تطوى اليك سباسباً ورمالا
فاذا رحلن بنا رحلن مخفّة ... وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وهذا قليل من كثير من عيون شعر أبى العتاهية ، وديوان شعره فى جزأين كبيرين أولهما فى الزهد ، وثانيهما فى الأغراض الأخرى ، وقد جمعه أحد القسوس اليسوعيين نقلا عن رواية النمرى وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهانى والمبرد وابن عبد ربه والمسعودى والماوردى والغزالى وغيرهم ، وهو مطبوع فى بيروت سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٦ م

وليس ما فى هذا الديوان كل شعر أبى العتاهية ، لأنه كان أحد ثلاثة لم تمكن الاحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية ، وكان فى هذا أكثرهم شعرا ، ولعلنا بما كتبناه فى حياته وشعره نكون قد قربناه لمن يجهله أو يجحد به ، وقدمنا للأدباء مثلا من الشعر النبيل الذى يجب أن ينسجوا على منواله .

عبد المتعال الصعيدى

الرأى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سأحمل فى الرأى مَضَّ الألم ... وأصبر للخطب إما ألمّ
وأحمل نفسى على مُرّها ... إذا ضامها ما يضيم الكرم
ولا أشترى كل هذا الوجود ... ولا العيش فيه ببعض الشمم
وأزهد فيما بناه الرياء ... وأصدع بالرأى مهما هدم
فأهونْ علىّ بدنيا النفاق ... وجاه يُنال ببيع الذمم
هو الرأى روحك فاحرص عليه ... فما بعد روحك غير العدم
وحكم القلوب بإلهامها ... وما أصدق القلب فيما حكم
فلا تطلبن وداد الصديق ... بمدح تزوّره أو بذمّ
فإن اللسان رسول القلوب ... يحدّث عنها بلا أو نعم
وإن العقيدة عِرضٌ فصنه ... إذا كنت ممن يصون الحُرَم
سَرت فى فؤادك مسرى الدماء ... فلا تبذل الدم إلاّ بدم
أمانة ربك فى خلقه ... فمن كتم الحق فيها ظلم
وميثاقه قبل خلق الجسوم ... تلقّته أرواحنا فى القِدم
بها رفع الله تلك النفوس ... وميّزها عن سوام النَّعم
فلا تغبطنّ أخا حظوة ... فما نالها برخيص القيم
ولكنه باع فيها الضمير ... وألقى العقيدة تحت القَدم
وساوم بالنفس فعل البغىّ ... رمت بالحياء ابتغاء اللقم
وكم أسخط الحق فى موطن ... وكم ألبس النور ثوب الظلم
تكاد مظاهره الخالبات ... تشف لعينيك عما كتم
ويوشك منظره المجتلى ... يحدّث عما طوى من تُهَم
فلا تغترر ببهاء الوضيع ... فكم من حذاء صقيل الأدم
وعش بالعقيدة عيش الكرام ... ومت رجلاً تحت هذا العلم
ولا تعتدد بالأُولى خالفوك ... وكن أمماً إن عصتك الأمم

أحمد الزين

الجبـــــل

(ذكرى)

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

جلالك أهدى من ضياء المنائر ومنبرك الأعلى أجل المنابر
لقد كنتَ عرشَ المجد فى الأرض عزة
ومسكن أرباب الدهور الغوابر
فيا معبداً سقف السماء غطاؤه وعمدانه الدوحات ملء النواظر
جلالك يُلْهِي المرءَ عن كل زائل فيخشع مسحور النهى والضمائر
توحدت كالرهبان يارُبَّ راهب رأى عصمةَ الأطوادطهرَ السرائر
تُطِلُّ على السهل الفسيح كأنما تُفَكِّرُ فى عيش القرى والعمائر
ألاَ إنَّ للأهرام مجداً وروعةً ولكنها إنْ لُحْتَ لهْوُ الأصاغر
فأنت بِنَاءُ الله لم يبنِ مثلَه قديرٌ ولم تعبث به يدُ جائر
ومعتصم فى معقل منك مانع كما اعتصم الملاَّح بين الجزائر
عَلَوْتَ برأسٍ فى السماء مُبَاعِدٍ أكَيْماتناجي السحب أم كبرقادر؟
وينساب فيك الماءجذلان لاهياً وآناً له روع كروعة هادر
عليك اعتراكٌ للعواصف رائع وبرقٌ ورعدٌ طىَّ سُحْبٍ مواطر
وأنت وَقُورٌ لم تُرَعْ من رعودها ولم تتهيَّبْ دورةً للدوائر
يُغَيِّر مَرُّ الدهر حياً وهامداً سواك فهل أوقفت خطو المقادر
فيا مَلِكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ومِنْ فوقه تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلاً بعد جيل كأنما تمر بك الأجيال مَرَّ العساكر
ترى مولد الدولات ثم مماتها وتبصر مجد اليوم بعد الغوابر
خلعتْ بك النفسَ الطَّموحَ إلى العلا
ومرأى جـــلالٍ منك ملء الخواطر

عبد الرحمن شكرى

عذراء الهوى

بقلم سليم الزركلي

هدأ الشاعر فى خلوته وانثنى يقرأ أسفار الحياة
فتجلى الشك فى صورته كوميض البرق بين الظلمات
* * *
زهرة لم تتفتح للهوى كالملاك الطفل فى مهد الدلال
لمست وجنتها بنت الندى فأضاء النور مصباح الخيال
* * *
بسم النور على أجفانها فتجلى فى معانيها الأمل
وارتمى البشر على أحضانها غارقاً بين أغاريد القبل
* * *
قبلتها الشمس فى وجنتها فنما فى دِفْئها وَرد العفاف
وحنا البـــدر على طلعتها فحلا للعين والقلب المطاف
* * *
يا ملاك الحب فى المهد ويا شعلة الالهام والوحى المصون
يا ضياء النفس فى النفس ويا غاية الحسن وتمثال الفنون
* * *
منيـة منيتها القلب اللهيف فغدا فى صبره يلقى العذاب
بسمةً واحدة يَهْدَ الوجيف وافتراراً عن ثناياك العِذاب
* * *
فى حنايا النفس آمال جسام تتلوى كأفاعى الهاجره
أطفئِي غلتها بالابتسام وبإغضاء الجفون الساحره
* * *
ما لهذا الكون معمور الجناب وفؤادى فى سراه حائر
فاذا ما مزّق الدهر الإهاب ماالهوى؟ ماالعيش؟ جَدٌّ عاثر!
* * *
عاشق الزهرة فى ميعتها
يحتسى فى الكأس معسول الرُّضاب
إنه يقطف فى صورتها بهجة الدنيا وأحلام الشباب
* * *
فاذا قبل خدّ الزهرات وهى سكرى كالعيون الناعسه
سمع القلب شجىّ النغمات فهفا ، وهى تغنى هامسه :
* * *

« أنت لا تبصرنى بعد غدٍ سوف يجلونى عن الغصن القدر
فتمتع من جمالى وازدد ولتمثلنى خيالات الفكر

* * *

لا تُضع أيامك الغرّ سدى واتخذنى مثلاً تنشده
يذهب العمر هباءً بَدَداً إن تولى عنه من يسعده

* * *

يا نسيم الروض خفف وطأتك لم أعد أستطيع حمل النغمات
سر على مهل وخفّف حدتك
أصبحت تؤذَى خدودى النسمات

* * *

واحنُ يا طيف على أحلامنا وابتسم تشرق أزاهير السعود
واسر مراحاً على أيامنا بنشيد من أناشيد الخلود »

* * *

فانحنى يغمرها بالقبلات ويوارى فى حناياه دموعهْ
وَدَّ لو ينفحها روح الحياة حانياً فوق أمانيها ضلوعه

* * *

طهّرى القلب بحب وغرام ودعى الأيام فى غفلتها
أنت إن أيقظتها جدّ الخصام وتداعى العمر فى يقظتها

* * *

واغنمى اللذات فى أوقاتها وارتعى مثل فراشات الربيع
واعطفى القلب على باقاتها إنها تحنو على الطفل الوديع

دمشق سليم الزركلى

النَّوَاجُ

رَأَيْتُ زَوَاجَ الْمَرْءِ أَسْعَدَ حَالَةً
مِنَ الْمُكْثِ بَيْنَ النَّاسِ وَهْوَ فَرِيد
شَرِيكُ الْفَتَى فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ زَوْجُهُ
فَكَيْفَ يَعِيشُ الْمَرْءُ وَهْوَ وَحِيدُ
وَلَوْلَا زَوَاجُ النَّاسِ فى الْكَوْنِ لانْقَضَى
وَلَا كَانَ لِلإِنْسَانِ فِيهِ وُجُودُ
يُخَلِّدُ ذِكْرَ الْمَرْءِ فِي الدَّهْرِ نَسْلُهُ
وَمَا لامْرِئٍ فِيهِ سِوَاهُ خُلُودُ

(بيانه) عبد الهادى الطويل

الوداع

بقلم الياس قنصل

يا قلبُ لا تجنحْ إلى الشـ شَكوى فتؤلمك الكلامْ
ودع الكآبةَ فالشبا ب إذا انقضى لا يرجع
وتأمّل الدنيا ، فقد أبدى هناها الابتسام
والناس ترفل بالمسرّ رة والطبيعة تسمعُ
لحناً أثيريّ الجما ل يعيد أنباض الأملْ
إن كان أحزنك التأهّـ بُ للوداع فما العمل
والدهر لا يرثى وأحـ كام القضا ليست تُرَدُّ ؟

* * *

أنا لا ألومك يا فؤا د إذا عراك الاضطرابْ
فلقد جرعتَ - وأنت فى عهد الصبى - كأس النوى
وخبرت أدواء البعا دِ وما تجرّ من العذابْ
فاصبر على جور الزما ن ، ولا تهب سهم الجوى
فالصبر ينفث فى الحيا ة الانشراح والابتهاجْ
لا تيأسنّ ، فقد يرو ق البحر من بعد الهياجْ
ولربما انجلت الغيو م عن السما وبدا القمرْ . . .

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل

القصص

صور من هوميروس

١٥ - حروب طروادة

صلح ...

للاستاذ دريني خشبة

أشرقت الشمس أو كادت ، وبدت ذيتيس تهادى فى الأفق الغربى فوق الثبج ، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر ، طلها الندى ...

وكانت تتأود تحت حملها الثقيل ، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المسرودة ، وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى ، ومهجة حرى ، وقلب موجع حزين

وكان ما يزال جالساً أمام جثة بتروكلوس يبكيها ، ويكلم فيها الأخاء والوفاء ، ويناجى فى لفائفها الود والولاء ، وكان ما يزداد إلا لوعة ، وكان ما يزداد إلا أنيناً !

وحنت عليه أمه تواسيه ؛ ثم لفتته إلى الدرع والخوذة ، فحدجهما بنظرة قانعة ، وشكر لها هدية ڤلكان ، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى به الصديق . . . « ذودى الذباب فلا يمسها يا أماه ، وادفعى عنها أذى أسرابه ، واسقيها من المنتقة الصفراء ، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى پتروكلوس بثأره ... ... »

وانطلق فى غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين ، داعياً إلى مجلس حربى

وكان يهتف بالجند النائم هتافاً عالياً ، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم ، واهتزت جوانحهم ، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل !

وكان أجل ذلك جميعاً أن ينهض أوليسيز متهالكاً على نفسه ، وديوميد مترنحاً فى عطفه ، ونسطور مرتجفاً كأنه فى يوم حشر ، ... و ... أجممنون ، كأن الحياء والخجل يصبغانه بحمرة الجحيم !! . . . .

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرّت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش ، وضياع للجهود ، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار !

وانتظم عقد القادة ، ووقف أخيل يتكلم ، فأرهفت الآذان ، وصفت القلوب ، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه :

« ابن أتريوس العظيم »

« أخى فى الوطن »

« يا أمير هذه الجيوش الغازية »

أرأيت ؟ ! أى جدوى عادت علىّ أو عليك من هذه القطيعة التى أججت نارها ، واندلع بينى وبينك أوارها ، وأى غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم بن عظيم ، بل سليل آلهة عظماء ؟ !

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التى أثارت كل تلك العداوة ، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا ! إى وأرباب الأولمپ ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس ، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر ، وما حاق بجحافلنا من خذلان ، لم يكن شىء منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا !

ولكن لا ! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة ، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ولكننا ، معشر الهيلانيين ، ينبغى أن نذكر أبداً أن لنا ثأراً عند هؤلاء الطروادبين ، لا محيص لهم من أن نأخذهم به ، وأن نطلبه عندهم ، فلا نرتد عنهم حتى يُدال لنا منهم ، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم ...

لنكبح جماح نفوسنا إذن ! وليطفئ كل من غيظه فى سبيل هيلاس ؛ ولتندمل تلك الجراح التى تفثأ قلوبنا فنكاد تقضى على آمال أمة ؛ وتطيح بأمانى الوطن !

أجاممنون ! بن أتريوس المظيم !

تلك يدى أضمها فى يدك ، عهداً مخفوراً وذمة وفية ، ألا ندع أهواءنا تهدم ما طمحت إليه نفوسنا من قبل ، وأن نكون من الساعة يدا على عدونا ، وإلباً واحداً ... ...

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا ، أو يجازف بنفسه أمامنا ..... هذا رمحى ! وتلك قناتى ! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء ... ... ! »

وتدفقت الدماء فى عروق القادة ، وشمروا كأن السماء رفعتهم اليها فتطهرهم وتزكيهم ، وتعود بهم الى الثرى قوماً آخرين ! .

ونهض أجاممنون من مكانه ، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان الخطابة ، فقال : « أيها الأصدقاء ! يا أبطال هيلاس ! ياوزراء مارس !

لست أدرى ما أقول رداً على أخيل المظيم ، بيد أننى سأفتح له قلبى ، وأكشف لكم أمامه عن سريرتى ، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل !

أبداً والله ما كنت سبب هذه المأساة التى أغرت بيننا العداوة ، وأججت نيران هذه البغضاء ! وأبدا والله ما آثرت أن يكون بيننا ، ونحن فى هذا الأمر ما نحن ، شىء من تلك القطيعة التى دفعنا ثمنها غاليا : أرواحا مطهرة ، ودما زكياً ، وشبابا أنضر الشباب ! !

أبداً والله ما أثرت من ذلك شيئاً قط ؛ ولكنها القادر ، ومشيئة سيد الأولمب ، وهذه الربات الغالبات « أرينيس [1] » اللائى تحالفن على ، فغشين بصيرتى ، وأذهلننى عن نفسى ، فأتيت ما أتيت على غير وعى منى ، ولا هدى ولا برهان مبين ! ... ...

ولقد ثاب الى رشدى ، وارتفع الحجاب عن بصيرتى ، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر ، كأشد ما يكون حصار بين موتين ! عندها ، ذكرت أخيل ! وذكرت أننى آثم فى حق أخيل ، وأن أخيل لو كان فى هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده ، وما ملكت رجلاه أن تحملاه ! فزاغت عيناى ، واستبنت ضلالتى ، واستغفرت الآلهة من

أجل آثامى !

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك ، وسعيت الى خصمك ، ومددت اليه يمينك من أجل الوطن ! مرحبا بك يا أخى ؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن ، ويذهب بالجفوة ، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعاً !

على أنى أرى أن أمهر صلحى وأؤكد محبتى ، باللُّهى الغالية ، والهدايا العالية ، وبكل مذخور ثمين ؛ فهلم يابن بليوس هلم ؛ هىء الصفوف وجيش الفرق ، حتى أعود اليك بتذكاراتى ... »

وأبى أخيل أن يلهو أحد فى تلك الساعة ، أو يشتغل إلا بالحرب . والاستعداد ليوم الفصل ؛ فشكر أجاممنون ، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته ؛ ولكن أوليسيز الجريح يتدخل ، ويرجو أن ينطلق أجاممنون فيأتى بالمطايا واللهى ، ... وبالغادة المفتان ، بريسيز ، فتنة الفتن ، ونادرة الجمال ؛ نقية كما هى ، أخيلية كما فصلت من خدر مولاها يوم الخصام الأكبر . وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون »

ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون ، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ؛ ثم يأمر خادمه (تلثيبوس) فينطلق الى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه ... ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه : « بتروكلوس ! » .

ويلح عليه أوليسيز فى أن يأكل : « لأن الحرب شاقة ، ويومها دهر بأكمله ، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان ... » وما يزيد أخيل إلا إباء !

وعاد أجاممنون

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل . ونهض أجا ممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس ، ورضاء الضمير ، ثم قدم الهدايا الى ابن بليوس الذى كان يشهدها ويبكى !

وفى الحق ، لقد كانت لُهىً أحسن اللُّهى ، وهدايا على قدر مُهديها !

فهذه صناديق سبعة مقفلة ، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما غلت قيمته من كتان مصر ، وخز الهند ، وحبر الشام ... وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيدز) فى هيئة السعلاة ، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن عزقن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب (الشرح من الأستاذ جرير ص ١٣٩)

واحدة ، ولوّنتها الآلهة بألوان واحدة ، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها ، فكانت تخيل أوروروا !

وهذه أيضاً عشرون دستاً من النحاس المزركش ، حليت سطوحها بالميناء والفُسيفِساء ، وتبارت فى حفرها كل يد صناع وفكر عتيد . وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب ، ويذهب سنا برقه بالأبصار !

وهذه بدرٌ عشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جملة اللُّهى ، كل منهن كأنها ڤينوس حقيقية ، تميس كأنها بانة ، وتبسم كأنها أقحوانة ، وتبدى عن الدر النضيد ! !

ثم ...

هذه بريسيز ! بريسيز الهيفاء ، وأصل هذا البلاء ؛ الدمية التى أترعت بالمفاتن ، وفاضت عيناها بسحر الهوى !

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار ، وتتقدم فتثب القلوب ، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر ، وشبابها الفينان !

فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح ، وتطيح بالأيك ، وتهب على اليم النائم فيصطخب ، والبحر الوادع فيضطرب ... و ... على الغدير ذى الخرير فيرقص من رعشة كأن به مسًّا من الخَدَر ! !

تلك هى بريسيز حين تبدت للقوم !

لقد هتف أوليسيز هتفةً ضاعت فى انذهال الملأ بما يرى ، على ما تعرف من جبروت أوليسيز ، وشدة أَيْده ...... ثم هتف فتلفت الناس ، وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها ؛ وأخيل مطرق ساهم ، لا يكاد يبى مما يقال شيئاً ! ...

واستل أتريديس خنجره ، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه ، وهو فى ذلك كله يصلى لأربابه ، ويسبح بحمد السماء ، ويشكر لسيد الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلى الآلهة ...

ونهض أجاممنون فقدم بريسيز إلى سيدها ، وعقب بكلمة طيبة ، ثم أشار أخيل إلى المرميدون فحملوا الهدايا ، وانطلقوا إلى أسطولهم بها ، ومعهم فتاة مولاهم فى صفوف موسيقية ، وفى موكب رهيب !

* * *

وانصرف القادة إلى زادهم ، والجنود إلى ميرتهم ، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل ، والصلح الذى باركته السماء ، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل !

أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها ؛ فشدهها أن ترى إلى جثة بتروكلوس فى لفائفها وأكفانها ، وإلى هذه الأم البارة ، ذيتيس ، جالسة عندها تبكى ، وتدفع أسراب الذباب ، وتسقى القتيل خمراً ! !

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب ، ولقد تركته ممتلئاً صحة ، موفوراً شباباً ؛ نضر الصبى ، ريّانَ الأهاب ! ثم عادت فكان أشق عليها أن تراه مُسَجًّى هكذا ! لا نأمة ! لا حركة ! لا نَفَس ! قتيلاً كأدنى من كان يقتل كل يوم روع ، طعيناً كأقل من كان يطعن كل يوم نزال ! !

ودارت الدنيا بالفتاة ، فراحت تملؤها ندبة وبكاء !. . .

واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين ...

فما كان أروعه منظراً ، وما كان أحره إخلاصاً ! !

* * *

وأقبل فونيكس على أخيل يواسيه

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع ، ولا ينقطع له نحيب ...

واطلعت أرباب الأولمب ، فشهدت ما يأخذ البطل من رُحَضاء الحزن ، وبُرَحاء الأسى ، فأشار زيوس إلى مينرفا ، فهبت إلى أخيل ترعاه ، وتخفف عنه من بلواه . فلما كانت قاب قوسين من ابن بليوس ، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن ، ويوهنه الجزع ، والجند مع ذلك قد بوّءوا مواقف للقتال ! فما هى إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه ، وليخفف عنه من وطأة الجوع . ويصدع فونيكس ، فيتقدم إلى أخيل كاشفاً عن صدره ، ويصب السلافة الأولمبية فيشربها الجسم الضاوى ، ويسترجع بها ما فقد من قوة ... وما يفتأ فونيكس يصب الخمر ، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوهاً ، حتى يكون فى كل قوته من أثر الخمر ، فيصيح صيحة الحرب ... التى تهتز لها أبراج طروادة ! ...

فانظر إليه مُقَنَّعاً فى حديد ڤلكان ، ، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التى لم تصنع مثلها يد الآلهة الحداد ، ، وانظر إليه يداعب حربة شيرون ، أستاذه السنتور المعظم ؛ ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه المُغْضَبَتين ؛ ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشِّعاب ...

ويل لك يا هكتور !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

اللغة السيوية بربرية

إلى الرحالة الأستاذ محمد ثابت ، سلام واحترام :

ذكرتم ياسيدي في العدد ١٢١ من (الرسالة الغراء) أن لأهل سيوة لغة خاصة يتكلمونها في رطانة هي أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وأنكم تسمعتم اليها فلم تهتدوا إلى كلمة واحدة تمت إلى العربية أو اللاتينية بسبب ؛ وبعد أن ذكرتم أمثلة من هذه اللغة الغريبة الشاذة قلتم : « ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى مازجته العربية ثم الرومانية »

والأمثلة التي ذكرتموها تدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة هي بربرية لا شك فيها ، وهذه الألفاظ التي استغربتموها هي نفسها لا تزال مستعملة في أفواه البربر في هذه البلاد إلى الآن

والذي انتهيتُ إليه — بعد البحث الطويل في أصل هذه اللغة وفي علاقتها بالعربية — هو أنها إن لم تكن لهجة من العربية الأولى بعدت عن أصلها بتراخي الزمن وطول الأمد حتى صارت كأنها لغة مستقلة ، فما لا شك فيه أنها لغة سامية (أنظر بحثنا « هل البربر عرب ؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى ؟ » في مقتطف يوليو ١٩٣٤)

وأما أن العربية المدوّنة في القواميس قد مازجت البربرية بعد الفتح الاسلامى لبلاد البربر ، فهذا أمر واقع لا شك فيه ، فكلمة « تَلَشْلَشْتْ » التي قلتم إنها من أسماء الأعلام عند السيويين هي كلمة عربيــة من « لَشْلَشْ » إذ تردد واضطرب « بُرْبَرْتْ » بادخال علامة التأنيث في اللغة البربرية عليها وهي التاءان معا في أولها وفي آخرها ؛ وترجمة هذه الكلمة « اللشلشة أو اللشلاشــة » وكلمة « لشلاش » من أسماء الأعلام هنا في الجزائر بين العرب

ولقد وجدت وأنا أنظر في اللغة البربرية أن القاف المعقودة فيها ينطقها بعض البربر جيما مصرية ، وينطقها بعضهم جيما عربية ، وينطقها آخرون منهم عربية تارة ومصرية تارة أخرى ، فقلت في نفسي : من يدرى فلعل الجيم المصرية جاءت من هنا (١) . وبرابرة برقة كما يحدثنا التاريخ أغاروا على مصر وأقاموا بها وأثروا في لغتها ، وجئتم اليوم أيها الأستاذ الرحالة فرويتم لنا أن نفس اللغة البربرية لا تزال مستعملة كلغة منزلية الى الآن في بعض زوايا مصر ، ونشرتم صورة فتاة سيوية عليها مسحة من الجمال المغربى ، فأفدتمونا منكم ما لم نكن من قبلُ نعلمه ولا ندريه ، فلكم الفضل والشكر على ما أوليتم

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهرى

قصة رائعة وفلم مبتذل

عرض أخيراً في بعض دور السينما بالقاهرة شريط مصور (فلم) عنوانه « الشيطان امرأة » وقيل في مديحه والترغيب في رؤيته أن النجمة الألمانية الشهيرة مرلين ديتريش هي صاحبة الدور الأول فيه ، وهي التي تقوم بتمثيل هذه « المرأة الشيطان » ؛ ولكن الذي لم يقل في شأن هذا الفلم ولم ينوه به هو أنه مأخوذ من قصة بيير لوئيس الشهيرة المسماة « المرأة وقراقوز » La femme et le Pantin أي الرجل الذي لا إرادة له

وقد أذيع أخيراً أن الحكومة الاسبانية أمرت بمنع عرض هذا الشريط في جميع أنحاء اسبانيا لأنه يعرض سمعة الضباط الاسبان ـ وبطله الرجل هو ضابط اسبانى ـ إلى المهانة والسخرية ويعرض سمعة المرأة الاسبانية ـ وبطلته هي فتاة اسبانية راقصة ـ إلى الزراية ، وذلك أنها تبدو في الفلم في شخص الفنانة الحسناء امرأة عاهرا مبتذلة تعرض أخطر ضروب الاغراء النسوى وأسفلها بصور مثيرة ملهبة ، تلك هي « كونشيتا » بطلة هذه القصة الشهيرة

---

(١) الجيم المصرية لغة عربية قديمة ؛ وممن كان يلهج بها بنو ضبة ؛ وبها روى الرجز المشهور : نحن بنى ضبة أصحاب الجمل (الرسالة)

بيد أن الحكومة الاسبانية لم تقف عند هذا المنع المحلي بل تقدمت بمذكرة احتجاج سياسي إلى الحكومة الأمريكية ، فتدخلت في الأمر ونصحت إلى شركة بارامونت التي أخرجت الفلم بسحبه من جميع أنحاء العالم ؛ فلم يسع الشركة إلا النزول عند هذه الرغبة وتنفيذها ، وبذا يختفي أحدث مخرجات مرلين ديتريش عن الأنظار ، ولكن تبقى بعد ذلك القصة الأصلية التي تعتبر من أبدع ما كتب بيير لوئيس ؛ بل هي في سحر أسلوبها وروائع عرضها لا تقل اضطراماً وحياة عن الشريط المصور ذاته ؛ وهكذا يستطيع من حرم مشاهدة هذا الشريط «الماهر المبتذل» أن يقرأ في بيير لوئيس ، ما يرفع روحه إلى ذروة الفن والخيال الرائع

وفاة لاوردس برون

قرأنا في البريد الألماني الأخير نعي الكاتب القصصي الدنمركي الشهير لاوردس برون (Laurids Bruun) ؛ توفي في الحادية والسبعين من عمره ، وكان برون سليل هذه المدرسة القصصية الدنمركية الزاهرة التي اشتهرت بروعة خيالها وسحر أسلوبها وخفة روحها ، والتي انجبت هانز آندرسن معبود الطفولة والحداثة ، وكان مثل مواطنه وسلفه الكبير آندرسن يكتب للشباب قصصاً رائعاً ممتعاً ؛ واشتهر على الأخص بسلسلة من القصص التي تصور الحياة في البحار الجنوبية ، واسم بطلها فان سانتن Van Zanten ؛ وأخرج منها ثلاثة مجلدات عنوان أولها « فان سانتن في أيام سعده » وعنوان الثاني « جزيرة السعادة لفان سانتن » وعنوان الثالث « الأرمل المحزونة » ؛ وتدور القصة كلها حول حياة تاجر ورحالة ، وهو فان سانتن ، يجوب البحار الجنوبية ، وينزل باحدى جزرها ، ويتزوج إحدى نسائها وهي ابنة ملك هذه الجزيرة ، ويعيش معها سعيداً ؛ ويصف برون هذه الحياة وصفاً رائعاً ساحراً ؛ وعبرة القصة تذهب إلى عكس ما ذهب اليه دانيل ديفوني في قصته « روبنصن كروزي » ، وهي أن الحياة البدوية في هذه البقاع النائية أسعد مما يتصور الناس

وكتب لاوردس برون أيضاً عدة مجموعات من القصص الصغير منها مجموعة : « إلى الوطن » ، وأسلوبه بسيط ساحر ، ويمتاز بمقدرة فائقة على تصوير الحياة والصور الطبيعية فيما وراء البحار ، وذلك في ألوان شعرية بديعة ؛ وهو يذهب في كتابته مذهب الدعوة إلى حياة الطبيعة ، والطبيعة أحب الأشياء والمناظر إليه ، وهي أروع ميادين قلمه وخياله

الأستاذ الزنجاني

من أخبار طهران أن وزارة المعارف الايرانية عينت الأستاذ أبا عبد الله الزنجاني مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) أستاذاً للفلسفة الاسلامية و تفسير القرآن الكريم في جامعة (سبهالار) في طهران

أسبوع المتنبي في دمشق

تألفت في دمشق لجنة من العلماء والأدباء برياسة الأستاذ المغربي رئيس المجمع العلمي العربي لاعداد الأهبة لاقامة مهرجان شعبي عظيم تحت رعاية وزارة المعارف السورية يستمر أسبوعاً بدمشق في فصل الربيع ، وسيقام في المعرض الصناعي السوري الذي يفتتح في شهر أبريل سنة ١٩٣٦ . وقد أرسلت لجنة المهرجان الدعوة إلى علماء العرب وشعرائهم في مختلف الأقطار ، وكذلك إلى أفاضل المستشرقين ليساهموا في هذا المهرجان ببحث ناحية من نواحي أبي الطيب ، وستنشر اللجنة كل ما يقال في هذا الاحتفال في كتاب خاص

وفاة فنان كبير ، وانتحار كاتب شهير

توفي أخيراً في ڤينا المؤلف الموسيقي الشهير الأستاذ بيلا لازكي ؛ وكان لازكي مدى الثلاثين عاماً الأخيرة من أعلام التأليف الغنائي والموسيقي ؛ وهو مجري المولد ، ولد سنة ١٨٦٧ ، وتلقى علومه في ڤينا عاصمة الفن الزاهر في ظل الامبراطورية القديمة ، وعاش فيها منذ شبابه ؛ وظهر في التأليف الموسيقي ، فوضع مئات الأناشيد والمقطوعات والأغاني الألمانية ، وامتاز بالبراعة في نوع خاص منها هو القطع الغرامية والشعبية التي تعزف وتلقى في النوادي الليلية (الكاباريه) ؛ وكانت تعاونه في فنه زوجته الفنانة والمغنية الحسناء ميلا مارس التي لبثت مدى حين تخلب ألباب المجتمع النمسوي الرفيع ؛ ولكنها توفيت شابة ومضى لازكي يطوي بعد ذلك حياته الفنية وحيداً ، ويخرج

كل عام عدداً كبيراً من المقطوعات والأناشيد التى تذاع فى جميع أنحاء العالم ، وفى أواخر أعوامه عرف لازكى متاعب البؤس والمرض ، إذ خسر معظم أمواله فى مضاربات عقيمة ، وداهمته أوصاب الشيخوخة ، فقطع أيامه الأخيرة محزوناً بائساً ، وتوفى فى الثامنة والستين من عمره

ووقفنا فى أنباء ڤينا الأخيرة أيضاً على حادث محزن هو وفاة الكاتب النمسوى الأشهر الدكتور فكتور درزتى وزوجه البارونة كلازا ؛ وقد وجدا منتحرين بالغاز فى منزلهما فى شارع بابنز فى ضواحى ڤينا ؛ ولم تتضح أسباب المأساة تماماً ، ولكن المعتقد أن الحادث يرجع إلى مرض عصبي شديد كانت تعانيه البارونة ؛ وكان الدكتور درزتى من النبلاء ، وكان أديباً وكاتباً كبيرا ، اشتهر بمقالاته الاجتماعية والنقدية ، وله مؤلفات وكتب قصصية ذائمة

شهادة لله (١)

سيدى الأستاذ الفاضل (صاحب الرسالة)

سلام عليك .

ربك العظيم يقول فى كتابه القديم :

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه »

صدق الله العظيم .

وإنى أعيذ نفسى برحمة الله من آثام القلب ، فضلاً عن تأثم القلوب .

سيدى الأستاذ :

هى شهادة لا أبتغى منك عليها جزاء ولا شكوراً

لقد كنت يا أستاذنا الزيات بليغاً دائماً ، بليغاً علم الله فوق ما نسمع ونقرأ من بلاغات سحبان وأكثم بن صيفى وعبد الحميد وإخوانهم من كرام البلغاء الأقدمين

أما فى مقالك الأخير ، فى عدد (الرسالة) الأخير ، المعنون (فى الجمال) « على هامش الموضوع » فلقد كنت أبلغ من نفسك بكثير .

أتدرى لماذا يا سيدى الزيات ؟

لأن موقف اليوم ، الذى أرسل قلمك ، بعد ارساله شجنك ، بمقال اليوم ، موقف من أبلغ مواقف التاريخ . لشد ما قال لنا التاريخ والزمن فى أنفسنا قولا بليغاً

وليس للمواقف البليغة فى الأمم والشعوب إلا قلوب البلغاء ، بل إلا القلوب البليغة ، ودعنى لا أقول هنا : ألسنة البلغاء ، فطالما والله أودت ألسنة البلغاء بحقوق وكرامات وأوطان !

ولعل هذا مايثبت فى قلبك البليغ ، فوق تثبيته فى قلمك البليغ ، أنك حقاً قبل أن تحمل فى وطنك أو فى وطن العربية قلماً ، فانك تؤدى فيها (رسالة)

رسالة لا تكذب الناس ، وهى تتسمى الى الناس باسم (الرسالة) ، وكثيرا ما تسمت الأشياء على هذه الأرض بغير أسمائها ، وهى الأرض التى قام عليها يوماً مسيلمة يقول : أنا نبى ! وقام من قبله فرعون من فراعنة مصر يقول :

أنا ربكم الأعلى !

هذه شهادتى إليك . ويسرنى كما يشرفنى ، بل استحلفك بالله أن تجعلها شهادتى الى الناس ، لأنها هى أيضاً شهادتى الى الله ، ألقى بها الله فيما ألقى به وجهه (الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) كما دعاه يوماً أعظم مخلوقاته ، لأنه أخلص المخلوقات : محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله

وهذه والله شهادتى ، ولو أنى لا أنى أنلى عندك عتابا قديماً ، لعلك كنت لا تصغى اليه لو أنى كتبته اليك قبل اليوم ، أو بادهتك به وجهاً لوجه ، لأننا لم نتعارف قلوباً ، بيد أنا تعارفنا وجوها ، مرة واحدة أو مرتين ، فى يومين فقط من الأيام

فارفع بيدك (رسالتك) يا أستاذ ، فهى من رسالات الله ، لأنها من رسالات الحق والوطن والقوة والجمال

ارفع بيدك هذه (الرسالة) من النور ، تخدم وطنك فوق ما يخدمه كثير من دعاته وأدعيائه البارزين فوق المسرح هنا وهناك

لن تفلح هذه الأمة فى نهضتها الوطنية ، حتى تفلح أولا فى نهضتها الأدبية ، أو قل نهضتها الأخلاقية ، نهضة النفوس والأرواح فى أعماقها لا على سطوحها التى يراها أو يسمع بها الناس . . . . .

ابراهيم ابراهيم على
المحامى بقليوب

(١) ننشر هذه الرسالة الكريمة على غير عادتنا ابراراً بيمين الأستاذ كاتبها ؛ وله الشكر الأوفى على حسن رأيه

الكتب

خيوط العنكبوت

تأليف الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

للأستاذ محمد سعيد العريان

الأستاذ المازني أديب من أدبائنا المعارف ، يجرى اسمه فى ابتسام عذب على شفتى كل من يتحدث عنه حين يذكر الأدباء ، وقل من لا يتحدث عنه حين يعرض ذكر أدبائنا الذين انشئوا فى الأدب وزادبهم . وإن له فيما يكتب لطابعاً وروحاً يتميز بهما ويعرف ؛ وما الأديب إذا لم يتميز بطابعه وروحه ، ويبرز اسمه وصورته وراء كل سطر مما يكتب ؟

على أن للأستاذ المازني غير ذلك فناً وحده ، تفرّد به ، واقتصر عليه أو كاد ؛ فما يستطيع أن يجاريه فيه أديب من أدباء العربية ؛ يرسم لك به الصورة الملموسة ، فيضيف اليها فناً من فنه ، ويخلق لك فيها الجديد الذى لم تبصره عيناك ، ولم تتناوله حواسك ؛ على أنك لا تستطيع الى ذلك أن تنكر أنك ترى شيئاً مما يرى ويحس ، وان أعجزك أن تراه وتحسه كما رآه المازني وأحسه ، أو كما جلاه عليك فى صورته الفنية المشرقة ؛ وان أعجب ما يروقك من فنه فيما يجلو عليك من صور ، هى هذه النواحى الضاحكة المضمرة وراء ما يبدو لك من عبوس المناظر والصور والأشكال ؛ فهو حين ينظر ، وحين يفكر ، وحين يكتب ، يستطيع أن يريك موضع الابتسامة من كل معنى كئيب ، واشراقة السرور من وراء كل ظل عابس ؛ وله من ذلك فى كل أليم تأخذه عيناه روح من السرور مضمرة مستخفية ، لاندرى أهو يخلع عليها من فنه فتضحك من عبوس ، وتنبسط من تقطيب ؛ أم أن له عيناً أنفذ بصيرة الى ما وراء المحسوسات ، هى تكتشف له عن حقيقتها وسرها ، فما هو إلا أن يجلوها عليك كما رآها ببصيرته واحساسه العميق ؟

وكما تجد للمازني فنه الخاص به ، تجد له كذلك أسلوبه ولغته ؛ وأحسبه لا يفكر فى اللفظ والعبارة عند ما يهم أن يكتب ، أكثر مما يفكر فى المعنى والموضوع ؛ فهو هنا وهناك لا يكلف نفسه الغوص والتعمق ، واستخراج المعنى من المعنى ، وتوليد الفكرة من الفكرة ؛ بل تراه أسلوباً متساوقاً مطرداً ، وفكراً قريباً من قريب ، وموضوعاً مما يقع عليه الحس وتألفه النفس . وأحسبه أيضاً يلتمس فيما يكتب أن يرضى قراءه ويسرهم ، أكثر مما يلتمس أن يكون إنشاء يخلد به فى الأدب ، واختراعاً يزيد ثروة اللغة معنىً أو موضوعاً أو فكرة . وما حاجة المازني إلى الخلود وهو لا يراه إلا خرافة ، اخترعها الانسان ليضل بها نفسه ويرضى ناحية من غروره وكبريائه ؟

على أنه – من حيث يريد ، أو من حيث لا يريد – قد كتب لنفسه فى تاريخ الأدب صفحة ، وأثبت صورة ، سيخلدبها ويخلد به

وأنت حين توازن بين ما يكتبه المازني الآن ، وما كان يكتبه أو يحرره منذ بضع عشرة سنة – لا تجد فرقاً كبيرا ، إلا أن ذلك الأديب الطموح الذى كان يكتب ليقول الناس : « ما أجمل ما كتب ... ! » قد قست عليه الحياة ونالته أحداث الزمن ، حتى عاد يكتب ، لأنه مطلوب منه أن يكتب ؛ ولكنه هو هو المازني الذى يعجب القراء به ويجتمعون اليه ، وإن لم يعنه هو اجتمعوا أم تفرقوا إلا بمقدار ما يعني صاحب الصحيفة الذى يطلب اليه أن يكتب !

والمازني حريص على سلامة لغته ، حرصه على أن تكون أسهل على آذان القراء وأطوع لألسنتهم ؛ وهو بسبيل ذلك كثيراً ما يحاول تصحيح الكثير من لغة العامة وأساليبهم ، فيخطئ فى ذلك ويصيب ، وما على المجتهد فى أن يخطئ بأس ؛ وقد يعرّ القارئ العادى على ما يكتب المازني ، فيراه بعض أولئك الضُلّال الذين يدعون الى العامية ويروجون لها ؛ ويعرّ الأديب المطلع ، فيرى لغة إن لم تكن الى لغة القدماء فهى منها ، وان كان فيها من لغة العامة ، فهو الجديد الذى تتقبله العربية ولا يأباه البيان الصحيح ، لأنه يزيدها ثروة الى ثروة ، ويفتح الباب الى الأدب القومى فى لغته التى يتحدث بها أهله ، غير نابية ولا مستكرهة ولا أعجمية

ولكنك إذ ترى المازنى يحرص على هذه الناحية القومية فى اللغة ، قل أن تراه كذلك فى الموضوع الذى يحاوله ؛ وما أكثر ما يشطح خياله الى قصة أو حادثة ، فيصورها بأسلوبه الساحر ، على أنها مصرية وقعت فى مصر ، وجرت فى الجو المصرى ، وتحدثت بها ألسنة مصرية ، وكان حقها أن تكون مما يقع فى لندن ، أو باريس ، أو برلين ! أتكون مطالعات المازنى فى مصر هى بعض الجو المصرى الذى يراه وينقل عنه ... ؟ على أنه أدب جديد فى العربية على كل حال سواء أكان من إيحاء الجو المصرى الى فكر المازنى ، أم من إيحاء جو غريب

وبعد ، فهذا كتاب المازنى الجديد « خيوط المنكبوت » ، فمن لم يكن يعرف المازنى فليعرفه فيه ، ولعله أن يرى هناك ما رأيت وأسلفتُ وصفه . وتبدو لك فكاهة المازنى لأول صفحة من الكتاب ، حيث يهديه الى ولديه : « اعترافا بفضلهما ، وشكرا لمعونتهما . . فلو لا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين ! »

وتقرأ فاتحة الكتاب فلا تدلك أى كتاب هو ، ولكن سِرْ الى نهايتها ثم اقرأ : « وبعد ، فقد لا يكون هذا الكلام أصلح ما يكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص ، ولكن روح الفاتحة من روح الكتاب ، وهذا شفيعها عندى فعسى أن يكون شفيعها عند القراء ... ! »

ولقد قرأت المقدمة ، وقرأت الكتاب ؛ ولكنى لم أستطع أن أفهم قوله « . . . . روح المقدمة من روح الكتاب » أما المقدمة ففصل اجتماعى ما كنت أقدّر أن يكتب المازنى مثله ، لا عجزا منه ، فانه لقدير ؛ ولكنى أعرفه أكثر اعتزازاً بقوميته ، وأفخر بعصريّته ؛ فما كان ينبغى أن يتهكم بمصر ويزرى بها ، كل هذا التهكم وهذه الزراية فى فاتحة الكتاب ! وقد يكون فيما عاب على المصريين وأخذ عليهم محقّا ببعض الحق ، وقد يكون بعض ما قاله أو أكثر ما قاله صحيحا ببعض الصحة ، ولكن ، أما كان ينبغى أن يستر على قومه ؟ والجمود والبلادة ، والضعف ــ عيوب طالما رُميتْ بها مصر من أعدائها ، ومن بنيها أنفسهم ، ولكن هذا على ما قد يكون فيه من رغبة الاصلاح ، يؤثر أثره فى القراء ، ويكون أشبه بالايحاء يستقر فى الواعية الباطنة فيعمل عمله ، فلا يكون من ورائه إلا الجمود والبلادة والضعف حقا وصدقا لا تهمة بغير دليل . ويحاول الأستاذ المازنى فى ختام الفاتحة أن يعتذر وأن ينفى التهمة ؛ أفتراه قد بلغ فى اعتذاره بمقدار ما بلغ فى تجريحه ؟

وإن القارئ ليعجب لذاك يصدر عن المازنى المصرى الفخور بقوميته ، ولكن ، أرأيت الى المازنى إذ يكتب فلا يتحرّج أن يسخر من نفسه ، وأهله ، وولده ؟ فما هو ذاك يسخر أيضا من مصر ... !

أما الكتاب ، فكل شئ فيه جميل ، إلا الفاتحة : وهو قسمان : « صور من الامس » ، و « صور من اليوم » هما مجموعة صور وأقاصيص ، لا تجد لها شبها مما كُتب فى العربية ، جمعت الى الرقة فى الوصف ، حُسْنَ الأداء وسلامة التعبير ، إلا قليلا أحسبه من أثر السرعة التى يكتب بها المازنى . وأنت ترى فيما تقرأ من هذا الكتاب صورة المازنى الطفل ، والمازنى العابث ، والمازنى الأديب الذى يسحر قراءه بسلامة الفكر وحسن الأداء ؛ لحياته منشورة فى كتابه مصوّرة ، على حين يحاول أكثر كتّابنا أن يكون ما يتصل بشخصه أبعد ما يكون عن قرائه . وقد تجد المازنى يجنح أحيانا الى المبالغة فى تصويره وفى عبارته ، وقد تجده يسترسل فى الكلام فيكتب فى القصة ما لا يطلبه موضوع القصة ؛ ولكن هذا وذاك لا يعيبانه ولا ينقصان من مقدرته القصصية وفنه البارع

وبعد ، فمن أراد أن يمتع نفسه ساعات من فراغ ، ويلذ نفسه ، فحسبه أن يقرأ « خيوط المنكبوت » ؛ ولو أن أحدا طلب الىّ أن أدله على خير ما قرأت فى هذا الأسبوع فلذنى وأمتعنى ؛ فليقرأ فيما يقرأ من الكتاب « الراعيان » ، « سيرة من السير » ، « التدخين » ، « الشيخ قفّه » ، « سياسة المرأة » ، فسيجد فيها ما وجدت من متاع ولذة ، ألذّ متاع وأمتعَ لذة .

محمد سعيد العريان